بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٤٦ - ربيع الأول ١٤٣٢هجرية قمرية

اسفند ١٣٨٩هجرية شمسية / مارس (آذار) ٢٠١١

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: ٨٨٣٢١٦١٦٩٨٢١ + هاتف: ٨٨٣٢١٤١١ ٩٨٢١ +

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥-١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٤٦

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي/ المولد النبوي ٤

في رحاب الرسول / بمناسبة المولد النبوي الشريف ١١

الثقافة والهوية ١٨

أكبر والمذاهب ٣٢

إفرازات الموروث الطائفي في القرن العشرين ٤١

استئناف الحركة الحضارية والتقريب ٥٠

محمد باقر الصدر / معالم لمشروع النهضة والهوية ٦١

حافظ الشيرازي في رؤية سيد قطب ٨١

خصائص المدح والهجاء عند أبي فراس الحمداني ٩٠

من جهود التقريب والوحدة ١٠٢

المقاومة في الأدب العرفاني / جلال الدين الرومي نموذجًا ١١٥

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي

المولد النبوي

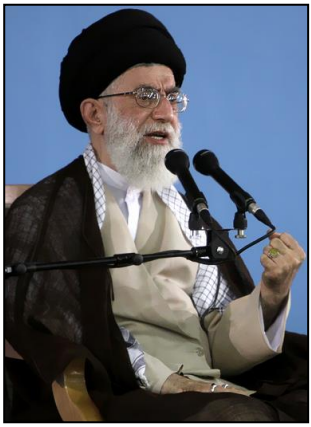

• في مثل هذا اليوم منّ الله سبحانه وتعالى على ساحة الوجود بأكبر ذخيرة إلهية • إن هذه الولادة المباركة يجب أن تكون نهاية إذلال الإنسان • الإنسان يجب أن يتحرر على يد هذا المولود المبارك • لو أن البشر صعّدوا من سعيهم وهمّتهم فسيصلون إلى الأهداف الإلهية المرسومة في المنهج الرباني أسرع • في السنن الإلهية إرادة الإنسان هي صاحبة القرار • الشعب الإيراني بقيادة الإمام الكبير استطاعوا بهمّتهم أن يقطعوا خطوة على الطريق • القضية الفلسطينية تشكل اليوم جرحًا نازفًا عميقًا في جسد المجتمع الإسلامي • لو أن شعب فلسطين في هذه المواجهة الشجاعة التي ينهض بها قد حقق النصر فإنه انتصار لكل دنيا الإسلام • كل ما يحدث اليوم في فلسطين، وكل مصير ينتظر هذه القضية، فإنها تؤثر مباشرة على مصير البلدان الإسلامية سواء منها القريبة أو البعيدة • الشعب الفلسطيني طبعًا قد نهض بواجبه نهوضًا يليق به كشعب شجاع غيور صامد.

بسم الله الرحمن الرحيم

أبارك مولد النبي الأكرم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله لكل الأمة الإسلامية الكبرى، ولكل أحرار العالم، وللشعب الإيراني المؤمن الشريف، ولكم أيها الحضّار المحترمين الأعزاء في هذا المجلس خاصة الضيوف الذين شرّفونا من البلدان الأخرى.

هذا اليوم الكبير الذي هو يوم ميلاد النبي الأكرم وميلاد الإمام جعفر الصادق عليه الصلاة والسلام إنّما يشكل بداية مرحلة عظيمة من تاريخ البشرية.

في مثل هذا اليوم منّ الله سبحانه وتعالى على ساحة الوجود بأكبر ذخيرة إلهية متمثلة بوجود النبي الكريم.

كانت هذه الولادة بداية مرحلة حاسمة في مصير البشرية. في آيات ولادته المباركة قيل إن شرفات قصر كسرى قد انهدمت، ونيران «آذرگشسب» بعد قرون من الاشتعال قد خمدت، وبحيرة ساوة التي كان ينظر إليها بعض الناس بعين التقديس قد جفّت، والأصنام التي كانت معلقة حول الكعبة قد سقطت. وهذه العلامات لها دلالات رمزية، تدلّ على اتجاه إرادة الله وسننه في إلباس خلعة الوجود لهذا الموجود العظيم والشخصية الفريدة الكبرى.

هذه الحوادث الرمزية تعني أن هذه الولادة المباركة يجب أن تكون نهاية إذلال الإنسان سواء على يد حاكمية الجبابرة والحكام المستبدين، كالذي كان قائمًا آنئذ في إيران وروما، أو بسبب عبادة غير الله.

الإنسان يجب أن يتحرر على يد هذا المولود المبارك، يتحرر من الحكّام الظالمين المتحكّمين في رقاب المظلومين على مرّ التاريخ، ومن أغلال الخرافات والمعتقدات المنحرفة المذلّة التي تدفع بالإنسان إلى الخضوع والذلة والطاعة لموجودات هابطة أو لإنسان آخر.

إلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح/١٨).. وعبارة ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لم تتقيد بزمان، فهي تشير إلى الجهة. البشر بهذه الحادثة يجب أن يتحرك في اتجاه الحرية المعنوية والاجتماعية الحقيقية والعقلانية. هذا عمل قد بدأ، واستمراره بيدنا نحن البشر. وهذه سنّة أخرى في عالم الخليقة.

لو أن البشر صعّدوا من سعيهم وهمّتهم فسيصلون إلى الأهداف الإلهية المرسومة في المنهج الرباني أسرع. أما إذا لم يفعلوا ذلك ووهنوا على هذا الطريق فإنهم سوف يبقون فيه سنوات طويلة كتيه بني إسرائيل: ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ (المائدة/ ٢٦).

بنو إسرائيل هم ألقوا بأنفسهم في التيه والضلال في الأرض. كان بإمكانهم أن يحولوا دون سقوطهم في تلك المحنة والمرارة، وكان بإمكانهم تقصير المدّة، كما كان بإمكانهم بسبب ضعفهم أن يطيلوا المدّة. مصيرنا أيضا كذلك، المسلمون أيضًا قد تبيّن لهم وتعيّن اتجاه خلق البشر، وفلسفة إعزام الرسل وإنزال الكتب السماوية. البشر أنفسهم هم القادرون على إطالة هذا الطريق او تقصيره. يستطيعون أن يصلوا هدفهم أسرع أو أبطأ.

في السنن الإلهية إرادة الإنسان هي صاحبة القرار. حين يدعو الإسلام إلى الجهاد: ﴿ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ (البقرة/٢١٨)

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج/ ٧٨) فإنما يدعونا إلى بذل كل ما وسعنا من جهد للوصول أسرع إلى الهدف الإلهي. فالهدف الإلهي ثابت وقطعي. إن لم نعمل على تحقيقه فسيأتي آخرون ليعملوا به: ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة/ ٥٤).

لقد جعل الله سبحانه هذا الطريق وهذا الهدف وهذا المصير من الأمور الحتمية القطعيّة. ولكنّ غير القطعي هو عبارة عن زمن الوصول، وهو الناس الذين سيحققون هذا الهدف الكبير. هذا يرتبط بإرادتي وإرادتك.

الشعب الإيراني بقيادة الإمام الكبير استطاعوا بهمّتهم أن يقطعوا خطوة على الطريق وأن يرفعوا هنا راية الإسلام. راية الشريعة المحمدية صلى الله عليه وآله مرفوعة اليوم في هذا البلد. كان من الممكن أن لا يحدث ما حدث أو أن يحدث بعد عشر سنوات أو مائة سنة.

غير أن الذي حقّق هذه المهمّة الكبرى في هذه الفترة الزمنية بالذات هو إرادة هذا الشعب وعزمه على التضحية وبذل الجهد. وهذه السنة جارية وسارية في كل مكان.

القضية الفلسطينية تشكل اليوم جرحًا نازفًا عميقًا في جسد المجتمع الإسلامي. الآية التي تُليت (في بداية هذه الجلسة) تقول عن النبي الأعظم: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة/٢٣) واليوم فإن ما يعاني منه المسلمون من عَنَت وألم، وأبرزه مسألة فلسطين، يعتصر قلب النبي: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾. ما يعاني منه الشعب الفلسطيني اليوم يملأ روح

النبي المقدسة في العوالم العلوية لعالم الخليقة بالهموم. ما هو العلاج؟ السعي والمجاهدة.

مسألة فلسطين هي اليوم مسألة دنيا الإسلام

نحن المسلمين في البلاد الإسلامية، علمنا أم لم نعلم، فهمنا أم لم نفهم، يرسم مصير فلسطين مصيرنا جميعًا. لو أن شعب فلسطين في هذه المواجهة الشجاعة التي ينهض بها قد حقق النصر فإنه انتصار لكل دنيا الإسلام، ولكن كلما استمرت معاناة هذا الشعب فإن ذلك سيعود بالذلّة على العالم الإسلامي. المسلمون يجب أن يفهموا تمامًا بأن هذه المسألة هي مسألتهم.

صحيح أننا جميعًا نتحمّل أمام هذه القضية مسؤولية شرعية أوجبها الإسلام تقضي بدعم الشعب الفلسطيني . لكن كلامي اليوم يتجاوز إطار المسؤولية الشرعية. أقول: إن كل ما يحدث اليوم في فلسطين، وكل مصير ينتظر هذه القضية، فإنها تؤثر مباشرة على مصير البلدان الإسلامية سواء منها القريبة أو البعيدة، ولذلك فإن كل ما تقدّمه الشعوب الإسلامية اليوم لفلسطين فإنها تعمل لنفسها ولمصالحها.

حين عمد الاستعمار البريطاني بدعم من عالم الاستكبار إلى فصل هذا الجزء الدامي من جسد العالم الإسلامي لم يكن الهدف فتح هذا الجزء فحسب، بل كان هدف المستعمرين السيطرة على كل المنطقة التي تشكل قلب العالم الإسلامي. من هنا فإن المسؤولية ملقاة علينا جميعًا.

الشعب الفلسطيني طبعًا قد نهض بواجبه نهوضًا يليق به

كشعب شجاع غيور صامد. وينبغي أن نعلم جميعًا بأن هذا الكيان الغاصب الظالم الصهيوني قد مُني حتى الآن بالفشل الذريع في عملياته، ولم يحقّق أيَّ نجاح، وهُزم أمام إرادة الفلسطينيين. إذ كان هدف هذه العمليات إطفاء شعلة انتفاضة الأقصى، وفرض حالة الاستسلام على الفلسطينيين، والقضاء على روح التحرر والغيرة لدى الشعب الفلسطيني. لكن الذي حصل كان على عكس ما أرادوا. فما نراه اليوم لدى الشعب الفلسطيني من عزم وإرادة ووعي يفوق ما كان عليه قبل الانتفاضة. لقد تكشّف أمام الشعب الفلسطيني ما يحمله هذا الكيان الغاصب وشريكه أمريكا تجاه الشعب الفلسطيني من عمق العداء والخبث والوحشية.

حين يصل الأمر بشعب درجة يرى معها أنْ لا سبيل له إلاّ التضحية الشجاعة بالنفس فلا يستطيع عندئذ أن يقف بوجهه أي شيء، لا قوة الصهاينة المتمثلة بالدبابة والمدفع وأمثالها من الأسلحة الظاهرية، ولا القوة السياسية والاقتصادية التي تساندها المتمثلة بأمريكا.

لقد انتهى عهد استدراج الفلسطينيين لكي يجلسوا حول طاولة المحادثات وليحصلوا على ما يسمى «امتيازات».

لقد اتضح عدم جدوى الجلوس خلف طاولة المحادثات والتفاوض مع العدو. لقد فهم الشعب الفلسطيني ذلك، ورسم طريقه، لقد دخل الساحة رجال فلسطين ونساؤها، والأمهات الفلسطينيات والشباب الفلسطيني والأطفال الفلسطينيون.

المهم في الأمر أن ينهض العالم الإسلامي بمسؤوليته.. العالم

الإسلامي بحكوماته وشعوبه.

قد تكون للحكومات محاذير، لكن الشعوب ليس لها هذه المحاذير..العلماء والمثقفون والسياسيون وأصحاب التأثير على الرأي العام ليس لهم هذه المحاذير. عليهم أن يُقدموا، وإقدامهم هذا سيساعد حكوماتهم.

لو ان الشعوب المسلمة، وخاصة الشعوب العربية، كشفت عن عزمها وإرادتها لدعم الشعب الفلسطيني بشكل واضح مستمر فإن ذلك سيعود بالنفع على حكوماتهم أيضا، لأن الحكومات عندئذ تستطيع في المجال الدبلوماسي أن تستفيد من ذلك للضغط على العدوّ.

إمامنا العظيم، قد فهم هذه الحقيقة كلّ الفهم. منذ بداية نهضته سنة ١٣٤١هجرية شمسية (١٩٦٢م) ... حين لم تكن القضية الفلسطينية في الأذهان قضية ملحّة حتى بين النخبة، كانت كلمة الإمام هي أن الجميع يجب أن يستشعروا الخطر مقابل هيمنة إسرائيل. على الجميع أن يستعدوا للمقاومة. وبعد ذلك واصل هذا الطريق. وكان ذلك واحدًا من الشعارات الكبرى لذلك الرجل السامي الإلهي.

أسال الله سبحانه أن يمنّ على الشعوب الإسلامية باليقظة، وأن يوفقنا لأن نعرف ما علينا من مسؤولية ونؤدي هذه المسؤولية. أسأله سبحانه أن يؤلّف بين قلوب المسلمين وأن يزيل بينهم عوامل الفرقة ويزيد عناصر الوحدة والألفة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في رحاب الرَّسول

بمناسبة المولد النبوي الشريف

أحمد الوائلي

نظمت بالمدينة المنورة عام ١٩٧٦م

أتيتـــــك بالأشـــــواق أطفـــــو وأرســـــبُ
وكلِّـــــيَ آمـــــالُ وكلَّـــــك مَطلَـــــبُ
ملكـــت علـــى بُعـــد الـــدِّيار مشـــاعِري
فأنـــتَ إلى ذهـــني مـــن الفكـــر أقـــرب
إلى أن دنـــت منِّـــي الـــدِّيار وأصـــبحت
قبابُـــك في عـــيني تهـــلُّ وتغـــرب
تلاشـــت حـــدودي في حـــدودك والهـــوى
تُوحَّـــدُ أشـــتاتٌ بـــه وتـــذَوَّب
فعـــدتُ ومـــا إلاكَ عنـــد معشـــري
فأنـــت بهـــا فكـــر وديـــنٌ ومـــذهب

❖ ❖ ❖

قطعـــتُ إليـــك الأرض شاســـعةَ المـــدى

إذا مـــا تقضَّـــى سببـــبُ جـــد سبســـب

تخايـــل فيهـــا الرَّمـــل أن صـــار معـــبرًا

إليـــــك ودربٌ للحبيـــــب محبّـــــب

ولاح عليـــه رســـم أخفـــاف ناقـــةٍ

غـــزوتَ عليهـــا يـــومَ للّه تغضـــب

وقافلـــة مـــازال رجـــع حـــدائها

يغـــرِّد في بـــدرٍ وأُحـــدٍ ويطـــرب

عليهـــا مـــن الصَّـــحب الكـــرام عـــزائمٌ

إلى الآن بالصَّـــحراء منهـــا تلـــهُّب

يقـــود بهـــا للفـــتح فكـــرٌ معمَّـــقٌ

ويحـــدُو بهـــا للنَّصـــر ســـيفُ مجـــرَّب

ومـــا قـــام مجـــد أو تســـامت حضـــارةٌ

بغـــير النهـــى يفـــتنُّ والسَّـــيف يضـــرب

❖ ❖ ❖

ولـــمّا وطـــأتُ المســـك مـــن أرض طيبـــة

وهـــبَّ عـــبير مـــن شـــذَى الخُلـــد أطيـــب

وأقحمـــتُ طـــريفٌ لُجَّـــة النُّـــور لوّحـــت

شمائـــلُ أشـــهى مـــن خميـــل وأعـــذب

تخيَّلـــتُ عشـــرًا مـــن قـــرونٍ وأربعًـــا

ســـتُبعد طـــريفٌ عـــن رؤاك وتحجـــب

ولكـــن رأيـــت الأمـــس عنـــدي بســـحره

ثـــريٌّ كمـــا يهـــوى الجـــلال ويطلـــب

كـــأنَّ السِّـــنين الـــذَّاهباتِ وبُعـــدها

مرايًـــا بهـــا تـــدنو إلـــيَّ وتقـــرب

ولملمـــت طـــريفٌ مـــن ســـناك ولمعِـــهِ

كـــذا الشـــمس تعشـــو العـــين منهـــا وتتعـــب

وراودت فكـــــري أن يعيـــــك فـــــأدَّه

بأنَّـــك أوفـــى مـــن مـــداه وأرحـــب

فآويـــت للـــذِّكرى يمـــس ســـلافها

فمـــي فـــإذا ريقـــي لهـــا يتحلَّـــب

وهوَّمـــت للأصـــداء تســـكر مســـمعي

بأنغامهـــا فالـــدَّهر هيمـــان مطـــرب

❖ ❖ ❖

سماحًـــا أبـــا الزَّهـــراء أن جئـــت أجتلـــي

ســـناك وأســـتهدي الجـــلالَ وأطلـــب

إذا لم تُؤمِّـــل فـــيضَ نـــورك ظلمـــتي

فمـــن أيـــن يرجـــو جلـــوة النـــور غيهـــب

وإن لم يلـــج ذنـــبي ببابـــك خاشـــعًا

فمـــن أيـــن يرجـــو رحمـــة اللّٰه مـــذنب

ومثلـــك مـــن أعطـــى ومثلـــي مـــن اجتـــدى

فـــإنَّ السَـــما تنهـــلُّ والأرض تشـــرب

ومـــا عنـــد بـــاب الأنبيـــاء معـــرَّة

فلـــيس علـــى مَـــنْ أمَّ بابَـــك معتـــب

أهبـــت بنقصـــي فاســـتجار بكامـــلٍ

إلى ذاتـــه يُنْمَـــى الكمـــال ويُنســـب

وأغـــرى طلابـــي أنَّ فـــيض معينـــه

مـــدَى الـــدَّهر ثـــرٌ مـــا يجـــفُّ وينضـــب

وعفَّـــرت خـــدِّي في ثـــرى مـــسَّ عفـــره

لجبريـــل مـــن جنحيـــه ريـــش مزغّـــب

وفيـــــه محاريـــــبٌ لآل محمَّـــــدٍ

بهـــــنَّ ضـــــراعاتُ إلى اللّه تنصـــــب

وآثـــــار أقـــــدام صـــــغار ومهجـــــع

إلى الحســـــنين الـــــزَّاكيين وملعـــــب

وصـــوت رحَـــى الزَّهـــراء تطحَـــن قوتهـــا

إلى جلـــد كـــبشٍ حيـــث تجلـــس زينـــب

رؤى ســـوف يبقـــى الـــدَّهر يـــروي جلالهـــا

وتبقـــى علـــى رغـــم البســـاطة تأشـــب

❖ ❖ ❖

عهـــدتك والقـــرآن نـــور وحكمـــة

يشـــد إليـــه التَّهـــائهين ويجـــذب

وأنـــت عطـــاء كلَّمـــا احتاجـــت الـــدُّنا

إلى مكســـب منـــه تولَّـــد مكســـب

وأنـــت طمـــوح نـــال كـــلَّ ممنَّـــع

ولم يرضـــه مـــن غـــارب الـــنجم منكـــب

وأنـــت شمـــوخ في النَّوائـــب مرقـــل

علـــى عزمـــاتٍ كلَّهـــنَّ توثُّـــب

وأنـــت إذا مـــا التـــاث رأي إصـــابةٌ

مســـدَّدةٌ عـــن صـــائب الـــرَّأي تعـــرب

فمـــا بالنـــا لا نجتليـــك بتيهنـــا

وأنـــت لنـــا نبـــعٌ وروضٌ مخصّـــب

فقـــد يكتفـــي في نافـــه الـــزَّاد كاســـل

لأنَّ كـــريم الـــزَّاد مأتـــاه متعـــب

❖ ❖ ❖

ويـــؤذي النُّهـــى والمنطـــق الجـــدَّ أن يـــرى

هُـــراءً هـــزيلاً يســـتطيل ويطنـــب

تـــداعى إليـــه الحـــالِمون وغـــرهم

بريـــقٌ بـــه فيمـــا عرفنـــاه خُلّـــب

فخاطـــب مـــنهم فاشـــلاً ومبلّـــدًا

وصـــــوَّره المظلـــــوم يســـــبى وينهـــــب

فثـــــابوا إليـــــه يرمحـــــون وعنـــــدهم

مـــن الحقـــد مـــا يـــبري الرِّقـــاب ويحطـــب

ويؤلمـــــك الإنســـــان يقتـــــل تِربَـــــه

ودون الـــدِّماء الحمـــر مـــا هـــو أصـــوب

وقـــــد تحســـــبنِّي ظالـــــمًا متجنِّيًـــــا

تناسَـــى الـــذي يفضـــي لـــذا ويســـبِّب

وكـــلاّ فمـــا أنســـى كروشًـــا تضـــخَّمت

مـــن الســـحت يُجنـــى والكســـيرة تُنهـــب

ولا بالـــــذي ينســـــى ســـــياطًا لئيمـــــةَ

تشـــظّي جلـــودَ الكـــاد حينًـــا وتُلـــهب

ولكـــنّني أرثـــي لنـــاسٍ تفـــرُّ مـــن

جحـــيمٍ ليحويهـــا جحـــيمُ مـــذهَّب

تعثـــر في أشـــواطه وهـــو لم يـــزل

إلى الآن يـــروي الإدعـــاء ويصـــخب

الثقافة والهوية:

نحو معاينة نقدية للتعدد الثقافي

محمد علي التسخيري*

• نحن ندعو إلى مرونة واقعية ونرفض الميوعة المفرطة • شعارات العولمة ما هي إلاّ تبرير لتحقيق مصالح استكبارية • لابد أن تعتمد الأمة منهجًا للتغيير المستمر بهدف الوصول إلى الأفضل • العولمة الإعلامية تسعى إلى تثبيط الهمم وتمزيق الأواصر • الأنظمة التي تتوسل بالدكتاتورية لمواجهة العولمة هي كالمستجير من الرمضاء بالنار • على الأمة أن توازن بين موقف التوكل على الله وموقف الثقة بالنفس • كل القوانين الكونية مسخرة لصالح الإنسان.

متى يطرح السؤال نفسه عن الهوية؟

عندما تهاجم أمة ذات وعي وموقف من الكون والتاريخ والإنسان، وعندما يتم العمل على فصل الواقع عن جذوره التاريخية العريقة ومبانيه العقائدية، وخصوصياته المحددة،

* - الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

وعندما يخطط الأعداء ان يميتوا العقل الجمعي والثقافة العامة والترابط الشعوري والتناسق السلوكي،

وعندما يراد قهر الإرادة وتفتيت الوحدة وكسر المقاومة،

وعندما يُعمل على دفع أية أمة للتردي في وهدة الحالة الفولكلورية والسطحية لينتج من ذلك إما التمجيد والنرجسية الفارغة أو التعصب والعنصرية (وفي كلتا الحالتين ستكون النتيجة هي التقهقر والتطرف فكرًا وثقافة واجتماعيًا) – كما يعبر الدكتور فتحي التريكي.

نعم عندما يتآمر العدو على أمة ما يبرز سؤال (الهوية).

والهدف الواقعي هو معرفة حقيقة الأمة كما هي ومعرفة حدود هذه الحقيقة ومشخصاتها دونما إغراق في التعميم والنمطية ودونما تفريط بمعالم الشخصية وتضييع لفرديتها وتشخصها الذي يمنحها ما تمتاز به على غيرها.

ماهي الهوية على صعيد الأمة؟

يطرح الفلاسفة حقيقة لا ريب فيها هي أن المفاهيم الكلية تبقى ذهنية فإذا أريد لها أن تدخل عالم الوجود تشخصت بحدودها وتعينت بمميزاتها الوجودية، ولا يمكن أن نتحقق من كون هذا الذي وجد هو مصداق لذلك المفهوم الا إذا كنا نعرف أبعاد المفهوم نفسه.

ولذا يكون السؤال: «ماهي أبعاد مفهومنا عن ماهية الأمة الإسلامية نظريًا» له الأسبقية على سؤال ماهو واقع هذه الأمة

ومدى انسجامه مع الصورة النظرية؟

وما نتصوره لهذه الأمة نظريًا يتأطر بالإطار التالي:

أولاً: تجمع بشري يؤمن بتميّز الإنسان عن سائر الموجودات الحية بخصائص فطرية لا تتوفر بمجموعها فيها هي:

أ- العقل باحكامه النظرية والعملية، وقدرته على التخلص من سيطرة الواقع الحسي وتأثيراته من خلال إدراكاته المتخيلة، والموهومة والمستنبطة.

ب – الغرائز والميول وهي دوافع عمياء تشاركه في بعضها الأحياء الأخرى ويختص هو بميول متعالية (كالشوق إلى الكمال وحب الاستطلاع والتدين وأمثال ذلك).

ج – الإرادة الحرة التي تقرر الموقف بمسؤولية مهما اشتدت الضغوط العقلية والعاطفية.

ثانيًا: ويؤمن بالله تعالى خالقًا للكون ومدبرًا له وبكل صفاته الحسنى الجمالية والجلالية، وبالأنبياء والرسل وآخرهم الرسول الأكرم محمد(ص) الذي جاء بالرسالة الخاتمة الخالدة قادة للتاريخ الإنساني ومبلغين لشرائع الله الهادية إلى مدارج الكمال، وبالقيامة معادًا لهذه المسيرة مما يعطيها هدفية ومعنى ولكل هذه المعتقدات فروع كثيرة تستفاد منها منطقيا.

ثالثًا: ويؤمن برسالة إسلامية تنظم الحياة وتبني المجتمع وتربى العقل والعواطف وتوجه السلوك كله نحو الكمال وتتصف بالواقعية والأخلاقية والتوازن والمرونة والشمول والعدالة والوسطية إلى ما هناك من صفات منسجمة.

رابعًا: ويؤمن بضرورة المساهمة في المسيرة الحضارية الإنسانية وامتلاك دور طليعي فيها، عبر انفتاح على الحضارات والثقافات وتشجيع على التقدم، واتخاذ منهج حواري منطقي مع الآخر، وتعاون عالمي في كل ما يخدم الصالح الإنساني العام ويدفع الظلم والعدوان على الحقوق وينصر المستضعفين ويحقق السلام العادل.

موارد الحذر

وفي مجال تحديد الهوية يجب الحذر من الجوانب السلبية وأهمها:

أ - السقوط في مفهوم ذاتوي متعال، ونرجسية تصعيدية لامبرر لها، ونمطية تهدد كل أنواع الحوار وتنظر لنفسها على أنها نهاية التاريخ ومنتهى التقدم تمامًا كما نشهده عند الليبرالية الديمقراطية ومنظريها اليوم، فهم مهما اختلفوا في الوسائل أهي الصراع أو التنافس يتفقون على أن المسار الحضاري يجب أن تتجه بوصلته نحو (الليبرالية الديمقراطية) لا غير وحتى أولئك الذين يبدون مرونة في التعامل مع الآخر الإسلامي فهم يبقون على الهدف ويخففون من قسوة الوسائل.

إن الهوية الإسلامية رغم قيمها الثابتة الفطرية تفسح المجال للاجتهاد الإنساني أن يقدم إبداعاته التفصيلية، وحكمته العملية التنظيمية الإبداعية، ورغبته الاجتماعية المتغيرة.

ب – السقوط في هاوية التفريط بالقيم الإنسانية الثابتة وهو مرض قاتل للحضارة يعصف بالقيم والعقل والمنطق والحقيقة

والمعرفة وهو تمامًا ما سقطت فيه حالة مابعد الحداثة الغربية.

إن الواقع الإنساني يحوي ثوابت قيمية هي سر انطباع أية مسيرة بشرية بالطابع الإنساني ومتغيرات طبيعية من قبيل بعض علاقات الإنسان بأخيه الإنسان أو بالطبيعة وإذا كان التعامل مع القيم ثابتًا فإن التعامل مع الجانب المتغير يتصف بطابع المرونة.

وعليه فنحن ندعو للمرونة الواقعية ونرفض الميوعة المفرطة، يقول الأستاذ الشهيد الصدر:

«فالتحرك الضائع بدون مطلق تحرك عشوائي كريشة في مهب الريح، تنفعل بالعوامل من حولها ولا تؤثر فيها. وما من إبداع وعطاء في مسيرة الإنسان الكبرى على مر التاريخ إلا وهو مرتبط بالاستناد إلى مطلق والالتحام معه في سير هادف» غير أن هذا الارتباط نفسه يواجه من ناحية أخرى الجانب الآخر من المشكلة، أي مشكلة الغلو في الانتماء بتحويل النسبي إلى مطلق وهي مشكلة تواجه الإنسان باستمرار إذ ينسج ولاءه لقضية لكي يمده هذا الولاء بالقدرة على الحركة ومواصلة السير، إلا أن هذا الولاء يتجمد بالتدريج ويتجرد عن ظروفه النسبية التي كان صحيحًا ضمنها، وينتزع الذهن البشري منه مطلقًا لا حدّ له للاستجابة إلى مطالبه، وبالتعبير الديني يتحول إلى إله يعبد بدلاً من حاجة يستجاب لإشباعها.

ويقول الأستاذ التريكي: «والفهم الموضوعي (لقضية الهوية في قبال الفهم الذاتوي) يحاول إقرار تناظر وتناسق بين الهوية والعقل في صبغته المنفتحة والكونية في الآن نفسه، وهو يأخذ بعين

الاعتبار ثوابت الوجود ومتغيراته ويفتح الوجود على الحياة بتغيراتها ومفاجآتها ونضالها وتوتراتها، فالذات في هذا الفهم مؤسسة للعقل والوعي المتحرك».

السلوك الرشيد

ومن هنا فإن من اللازم علينا - ونحن نعمل على تلافي تهديد التنميط وتداعيات التفريط - الالتزام بسلوك متوازن رشيد ومن أنماطه مايلي:

أ – أن تمتلك الأمة نظرة عالمية إنسانية تستمد فلسفتها من وحدة الفطرة ووحدة المسيرة وضرورة التعاون الدولي في نظام عادل يعطي كل ذي حق حقه ويحترم الخصوصيات الثقافية كما يحترم حقوق الإنسان وحرياته دونما اعتداء.

وحينئذ يجب التنبيه والحذر من الوقوع في حبائل هذه العولمة المجنونة التي تعتمد الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصادية على الآخرين، وهي في الواقع إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالية القديمة مع تغيير في الأسلوب والوسيلة.

صحيح أننا لا نستطيع أن نخطط لأية قضية حتى ولو كانت تبدو لأول وهلة داخلية بحتة (من قبيل قضايا التربية والإعلام والبيئة الداخلية وحركة الطاقة الداخلية والمسيرة الزراعية والتنمية العلمية، وحتى المناسبات والقناعات الفولكلورية) الا إذا لاحظنا المسيرة العالمية للعولمة في كل هذه المجالات وإلاّ فسيكون تخطيطنا ناقصًا تواجهه موانع بعد ملاحظة الفضاء العولمي

والنفوذ العميق لثقافة العولمة إلى كل مجالات حياتنا شئنا أم أبينا. وتلك بنفسها مشكلة تضغط على أنماط تخطيطاتنا.

ثم إن مفهوم الدولة وقدرتها بدأ يهتز بشدة وبالتالي راح دور الضغط الخارجي، والمراقبة الكونية يزداد. وربما كان هذا ذا أثر إيجابي في مجال نفي الأساليب الديكتاتورية والقمعية وإدانة انتهاك حقوق الإنسان، الا أننا نعلم أن العولمة لا تستخدم هذه العناوين البراقة الا لتبرر تدخلها لتحقيق مصالحها الضيقة، فإذا رأت أن تدخلها ينقلب على أهدافه المخفية تخلت عنه، وهو بالضبط ما رأيناه من تخلي أمريكا عن مشاريعها في الشرق الأوسط الكبير والجديد.

٢ - أن تعتمد الأسلوب الوسطي المتوازن في مختلف تعاملاتها مع الواقع وتتجنب الإفراط والتفريط فكلاهما يعد خروجًا عن الجادة المستقيمة. ويمكننا أن نؤكد أنهما إذا ركزا على أي شيء أفسداه حتى العلم والدين والمعرفة فإذا أصيبت هذه الأمور بالإفراط مثلا تحولت إلى مسارات خطيرة ومنزلقات واسعة .

٣ - أن تجعل عملية الحوار مع الآخر الداخلي والخارجي منطقها قبل أية خطوة أخرى. وها هو القرآن يتحدث لنا عن أساليب من الحوار جرت ويمكن أن تجري بين أطراف متنوعة ويرسم لنا أحسن الطرق في الحوار حتى أنا لنعتقد أن في القرآن نظرية متكاملة للحوار المنطقي السليم. ويخطئ من يتصور أن الحوار لغة العاجزين، بل هو على العكس لغة الأقوياء في منطقهم، المطمئنين إلى أصالتهم، الواثقين من هويتهم،

الموضوعين في تعاملهم . نعم إذا أراد الآخرون استغلال الحوار لكسب الوقت وتنفيذ الخطط الجهنمية أو لبث الشبهات الممزقة والظلم للوجدان الاجتماعي فإنهم هم الذين يسدون باب الحوار.

٤ - أن تعتمد الأمة منهج التغيير المستمر بهدف الوصول إلى الأفضل طبعًا مع الاحتفاظ بالثوابت الإسلامية التي هي جزء من الهوية. وتعمل على تعبئة كل طاقاتها المادية والمعنوية للتخلص من حالة التخلف الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والتقنين والتربوي والإعلامي وغير ذلك وليكن المنهج التغييري سمة عامة وفق ما أراده الإسلام كما أشرنا إلى ذلك.

إن التجديد حتى في أساليب الاستنباط الديني، والتحريك في عملية الوعي، يشكل منة على الأمة ـ كما تذكره الروايات.

٥ - أن تمتلك الأمة المناعة الكاملة ضد التآمر على هويتها التقنينية وثقافتها الاجتماعية من خلال التأثيرات الدولية والإعلامية .

وهذا المعنى ينسحب على عملية التقنين والتشريع الثقافي والاجتماعي فها نحن نشهد مؤتمرات التنمية والسكان والمرأة تسعى جاهدة لتعميم الثقافة الغربية والتصورات الاجتماعية المنحرفة باسم «الحقوق الجنسية» و«الحرية الفردية للمراهقين» وأمثال ذلك، مضمنة ذلك في خانة حقوق الإنسان وهي الباب الواسع الذي تنفذ منه العولمة إلى جميع المجالات.

كما أننا نشهد تدخل العولمة الإعلامية من خلال الجو الخانق للمعلومات المتدفقة عبر مئات المحطات الفضائية والانترنت لتغير

الحقائق، وتثبط الهمم وتبث الشائعات وتمزق الأواصر، وتغير التصورات وتشكك في القناعات وتخلق الحزازات. وهذه أمامنا المؤامراة الضخمة التي تعمل على أن يخطئ العالم الإسلامي عدوه الحقيقي ويتوجه إلى اعداء وهميين، بعد تحريك الكوامن الطائفية والقومية والجغرافية والتاريخية فيه.

وعلى نفس الوتر نذكر بالمشكلة الاخلاقية التي جلبها لنا إعلام العولمة فجعل الرذيلة والعري والتحلل وكل المحرمات مباحة معروضة في العلن أمام شبابنا وكل من تتحرك فيهم الأهواء. والأنكى أنه خلق له قواعد ومحطات داخلية تصب حممها على الترابط الخلقي بين مجتعاتنا فلا يستطيع الخيرون أن يصلحوا الأمر.

وقد ابتلينا أخيرًا بالتدخلات العسكرية الأمريكية تحت غطاء العولمة ومساهمة القوى العظمى في دفع الأخطار عن البشرية ومحاربة الإرهاب، بعد أن سوقت لمفاهيم عولمية خطيرة من قبيل مفهوم «الحرب الاستباقية» وامثال ذلك.

وكانت التدخلات الخطيرة في أفغانستان والعراق ولبنان، والقائمة ممتدة، بالإضافة للعدوان الصهيوني المستمر في تطبيق الأجندة الغربية.

ولاريب أن العالم كله قد شهد ما تركته هذه التدخلات من آثار ثقافية واجتماعية واقتصادية مدمرة عانت منها مجتمعاتنا كثيرًا.

وربما كان من سخرية المسيرة اليوم ان نجد نظمًا حاكمة

تتذرع بالدفاع عن شخصية الأمة ووحدتها وصمودها في قبال العولمة بتشديد الرقابة وزيادة القيود على الحرية وتكميم الأفواه ونشر الاستبداد ، فتكون بذلك من قبيل المستجير من الرمضاء بالنار. وماهي في الواقع إلا ذريعة للتشبث بالحكم والسلطة وقد توافقها دول العولمة لأنها تؤمن لها نفوذها وهيمنتها وهو المقصد الأول في كل العملية العولمية.

٦ - يجب أن تقوم الأمة بالنظر إلى المستقبل والعمل له دون الغرق في الطوباوية ودون أن تهمل تاريخها لأنه أيضًا جزء من هويتها والذي يجب توظيفه لصالح التغيير التكاملي بدلاً من البقاء في أسر أحداثه المتلاطمة. إنه يجب أن يكون عبرة للاعتبار لا وحدة للتخدير وأحيانا للاختلاف المرير.

إن الطوباوية في النظرة المستقبلية مثلها مثل الذاتية التحذيرية في النظرة التاريخية تضر بالمسيرة أيما إضرار.

٧ ـ يجب أن تمتلك الأمة موقف الأمل بالله مع الاطمئنان ببقاء السنن الكونية.

فإنه على ضوء إيمان المسلم بطلاقة المشيئة الإلهية ينشدَّ بالله تعالى في حالاته، ويتعلَّق بفضله، ولا ييأس من روح الله تعالى في أشد حالات الحرج. ومهما استعصت الظروف وبدا له أنها لن تنفرج فهو معتقد بقدرة الله على تغييرها ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فهو يعمل على سلوك السبيل الطبيعي الذي يحقق الهدف، نظرًا لأنه يعتقد بأن الله «أبى أن يجري الأمور إلا بأسباب» وهاتان الجهتان: عدم اليأس، وسلوك السبيل الطبيعي،

تشكلان عنصرين مهمَّين تتوازن بهما الشخصية الإنسانية. فعدم اليأس يبقى الدافع الأصيل ويحافظ على رباطة الجأش، ولا يدع القوى تتفتت. وسلوك السبيل الطبيعي يرتفع بالإنسان عن العيش في الخيال، ويجعل منه إنسانًا واقعيًا يتعامل مع الواقع كما يتطلبه الواقع.

٨ - على الأمة أن توازن بين موقف التوكل على الله و موقف الثقة بالنفس

ولعل هذا النوع من التوازن يرتبط كل الارتباط بما قبله، فإن اعتقاد المسلم بالإرادة الإلهية المطلقة يجعله يوكل أموره إلى الله، ويعتقد أنه لا يملك من أمره شيئًا إلا بإذن الله تعالى فلا هداية إلا من الله تعالى؛ ولا توفيق إلا به تعالى، مما يركز النظر عليه في كل تأثير... إلاّ أنَّ هذا التوكُّل على الله لا يفقده الثقة بنفسه وبقدرته على التغيير، بل يمنحه أعظم الثقة بنفسه، ذلك لأنه يتصور أن الله تعالى منحه سلطان التغيير، وجعله خليفته على الأرض، يعمرها وينشئ فيها حضارة السماء أي الحضارة التي تشكل تعاليم السماء روحها؛ وأوكل إليه عملية التغيير الكبير.

فهو إذن إنسان يعقل ويتوكَّل، يغير ونظره مركَّز على السماء، يبني وهو يعلم أن المدد الحقيقي من الله تعالى. وما أروع الثقة المنبعثة في النفس التي تتوكَّل على الله تعالى خالق الكون فتقتحم الصعاب وتقدم التضحيات.

٩ - وعليها أن تقف موقف العلوِّ على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل

فبعد إيمان المسلم بأن العوامل المحركة للتاريخ مختلفة تتراوح بين القوانين التكوينية المحركة وغير المحسوسة إلى الفطرة بغرائزها، وفوق كل ذلك الإرادة الإنسانية التي تهيِّئ للإنسان مجال التحكم في مسيره... يكون قد علا على المشاكل التاريخية، بعد أن علم بأن له اختيار تنظيم حياته، وبيده صنع حضارته، فليست المشكلة التاريخية مفروضة عليه من الأعلى بحيث لا يمكنه أن يتحرك تجاهها، وإنما يمكنه – متى لاحظ عدم صلاح واقعه – أن يغيره.

وهذا التصور يعطيه حركية دائمة تعمل على التطوير والتقدم التكنيكي، كما تعمل على التكامل المعنوي والفكري، كل ذلك ضمن تخطيط سماوي رائد يوضح له ما يجب أن يريد ويرشده لئلا يضل، ويعين له الهدف الذي يجب أن يسوق التغيير باتجاهه.

ومن هنا فهو ليس عبدًا لعامل تاريخي معين، ولا لكل العوامل، بل كل العوامل التاريخية مسخرة لصالحه، وكل القوانين التكوينية المحسوس منها وغير المحسوس قننت لصالحه، ويستطيع أن يستفيد منها في صنع حضارته ورقيه، تمامًا كما يستفيد من قوانين: الضغط، والإزاحة، والجاذبية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فهو يحسب لكل عامل حسابه على ضوء التشريع الإلهي، فلا ينسى مثلاً دور العامل الاقتصادي ولا دور العامل الجغرافي أو العامل الغريزي الجنسي وغير ذلك، وهو يستهدي التشريع ليستثمر هذه العوامل لصالحه.

فهو هنا – إذن – يوازن بين تقدير عمل العوامل والعلو على جميع المشاكل التاريخية، فيكون واقعيًا في سلوكه.

١٠ - وعلى الأمة ان تقف موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر

وذلك، لأنه لما كانت السبل كثيرة، والإغواءات متوفرة، والشيطان يقعد للإنسان بكل مرصد فإن الإنسان المسلم يصمم على خوض تجربة الحياة.. ويتأكد بين الحين والآخر من صحة اختياره متسلحًا بسلاح الوعي مستمعًا لإرشادات الوحي، متجنبًا مزالق الضلال، مطمئنًا بأنه ليس للشيطان عليه أي سلطان، وأن سعادته تكمن في رجمه ورجم كل ما يمثله. وتأتي التعاليم الإسلامية فتذكره بطرق الخير دائمًا وأهمها العبادات التي تشده شدًا بالله تعالى، وتركز على أن ينفي الشر عن حياته، وهذا ما يبدو بوضوح في رجم الجمرات مثلاً.

وعليها بالتالي ان تقف موقف الخوف والرجاء

ويكاد هذا النمط من التوازن يشكل معلمًا بارزًا من معالم الشخصية المسلمة.

فعن الصادق(ع) أنه قال: «كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن، إلاّ وفي قلبه نوران، نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا».

فالرجاء العظيم برحمة الله تعالى يدفع الإنسان المسلم نحو الحياة ويفتح قلبه للمستقبل، والخوف العظيم من عقابه يدفعه لأن يحقق مقتضيات الرحمة الإلهية.

ويرتفع مقياس الخوف والرجاء كلما تعمقا في النفس الإنسانية وتجلت لديها المعقولات فقربت من عالم الحس – كما سيأتي – ومن ثم انعكست على السلوك الخارجي.

كما يقول الإمام الصادق(ع): «لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون خائفًا راجيًا، ولا يكون خائفًا راجيًا حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو».

والملاحظ هنا – كما لاحظ ذلك بعض الكتّاب – أن الإسلام قبل أن يستفيد من خاصيتي الخوف والرجاء والتأثير بهما في النفس الإنسانية، لجأ إلى توجيههما الوجهة الصحيحة، فنفى كل متعلقاتهما الباطلة التي تحرف النفس عن الهدف، بل وتشكل مصدرًا للقلق الممزِّق للنفس الإنسانية، المميِّع لكل تماسك وتوازن فيها، وهو الداء الذي ابتلي به الماديون ففقدوا توازنهم الروحي وعاشوا مع الخوف حتى من الأمور الوهمية.

نعم، نفى الإسلام تعلُّق الخوف بأُمور لا ينبغي الخوف منها، إلاّ في حدود الخوف من الأمر الصحيح. كما نفى الرجاء ولم يسمح له أن يتعلّق إلاّ في حدود الرجاء للأمر الذي ينبغي أن يرجى.

وبتعبير آخر: إن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من عذاب الله وغضبه. والرجاء الحقيقي يكون لرضا الله ورحمته فكل خوف أو رجاء لا يؤطِّره هذان الأمران لا قيمة له في الحساب القرآني ويجب أن ينفى من حياة الإنسان، لأنه مصدر قلق بعد أن تعلّق بأمور غير منضبطة بل وخرافية أحيانًا.

أكبر والمذاهب

• النزاع الطائفي من عوامل سقوط العالم الإسلامي • عصر أكبر كان آخر عصور القوة الإسلامية في الشرق • أمر أكبر رغم أميته بإنشاء مكتبة وترجمة الكتب إلى الفارسية • أنشأ أكبر عبادة خانه لكنه فشل • وأنشأ المذهب الإلهي لكنه فشل أيضًا • المبشرون في الهند كانوا يحملون عداء للإسلام والمسلمين • الثغرة التي فتحها أكبر أمام توغّل المبشرين أسقطت الهند • إذا لم تقدّم أطروحة التقريب على قاعدة علمية فستُطرح المشاريع الناقصة.

التعصّب الطائفي والمذهبي ضيّع على المسلمين دائما فرصًا كثيرة في النموّ السياسي والاقتصادي والاجتماعي. والأمثلة على ذلك كثيرة، والمثال الذي نقدمه في هذاالمقال من شبه القارة الهندية ومن أواخر القرن العاشر الهجري حيث كانت الأسرة التيمورية قد أقامت دولة عظيمة هناك هي ثالث دول العالم الإسلامي آنئذ بعد الدولة العثمانية والدولة الصفوية، وحيث النزاع بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة قد امتدّ إلى شبه القاهرة الهندية، فدارت بين الفريقين معارك طائفية حادّة، وعلى حساب هذه المعارك قوي الهندوكيون وبدأوا يتوسعون سياسيًا واجتماعيًا، وعلى حساب هذه المعارك أيضا توغّل المبشرون

البرتغاليون داخل الهند وكثّفوا نشاطهم، وامتدّ نفوذهم إلى داخل البلاط الحاكم، في عهد «أكبر خان» وبذلك توفّرت كل الظروف لانحدار هذه الامبراطورية إلى السقوط بيد الاستعمار الاوربي.

من هو أكبر

أبو الفتح جلال الدين محمد، ثالث أباطرة الأسرة التيمورية بعد «بابر» و«همايونشاه». ولد في أُمركت من أعمال السند سنة ٩٤٩هـ. واعتلى السلطنة في البنجاب سنة ٩٦٣هـ، وتوفي في أكرا سنة ١٠١٤هـ تاركًا الأمر لابنه سليم (جهانگير).

استولى على كجرات وبنغاله وكشمير والسند فوسّع ملكه، واهتمّ باللغة الفارسية وهي اللغة الادبية لتلك الاصقاع آنذاك، وأمر أن تترجم كل كتب الهند الأدبية والدينية القديمة إلى اللغة الفارسية. وسجّل وزيره أبو الفضل تاريخ حياة أكبر في كتاب هام بالفارسية سماه «اكبرنامه»، ثم أمر أن تكتب تكملة لهذا الكتاب تتضمن جغرافية الهند سمّيت «آئين أكبري».

كان عصر أكبر آخر عصر من عصور القوة الإسلامية في الشرق. إنه عصر السلطان سليمان القانوني العثماني، وعصر الشاه عباس الثاني في إيران. وكان عصر هؤلاء يقابل عصر النهضة الأوربية، عصر اليزابيث الأولى في بريطانيا، وفرديناند الثاني في إسبانيا. غير أن أوربا شقت طريقها نحو التقدّم والنمو

بينما دول الشرق الكبرى مزّقتها النزاعات حتى سقطت بيد الطامعين.

ويتميز أكبر بسعيه لإنهاء العصبيات الدينية في بلاده، وخاض في هذا المجال تجربة كانت تقوم على أساس خصائصه الذاتية، ففشلت فشلا ذريعًا، وتركت لنا تجربة تستحق الوقوف عندها.

خصائصه الذاتية

ذكرنا أن تجربة أكبر في المسألة المذهبية ترتبط بخصائصه الذاتية فما هي هذه الخصائص:

١ - كان أكبر حادّ المزاج عنيدًا لا ينتصح ولا يعير لرأي أهمية، بل يعمل بما خطر في فكره وارتضاه، وبدت عليه هذه الحالة منذ صباه، إذ أحضر اليه والده همايون أعلى الأساتذة كعبًا، ولكن فشل المدرسون حتى في مجرّد تعليمه مبادئ القراءة والكتابة، وظل أميًا طول حياته رغم أنه كان يعيش في جوّ مليء بالأدباء والعلماء، بل كانت عمته جلبدان في طليعة المثقفات والأديبات وزوجته السلطانة سليمة من الأديبات ومتذوقات الادب. وكان في بلاطه أعظم الأدباء والشعراء.

٢ - كان إلى جانب أميته مهتمًا بجمع الكتب وفهم ما تحتويه، ويقال إن مكتبته الضخمة حوت٢٤ ألف مخطوط من أنفس المخطوطات، كما ذكرنا أنه أمر بترجمة كتب الهند القديمة إلى الفارسية ليفهمها. وكانت الكتب تقرأ عليه

فيستوعبها بذاكرته الخارقة، ويناقش مافيها من عويص المشكلات الأدبية والفنية!!

٣ - كان يهمّه جدًا أن يجمع شبه القارة الهندية تحت سلطان واحد، وذلك لا يتحقق في رأيه إلا إذا قضى على الاختلافات الدينية والطائفية في هذه المنطقة الصاخبة بألوان الأديان والمعتقدات.

٤ - تركت الحروب الضارية التي خاضها في فتوحاته التي أدت إلى مقتل الآلاف المؤلفة من المسلمين والهندكة حالة نفسية كارهة لكل نزاع دموي ولكل إزهاق لأرواح الناس. وكانت هذه الحالة ذات تأثير في مشروعه المذهبي.

مشكلة تعدد الأديان والمذاهب

بدافع من رغبته في توحيد الهند تحت سلطانه، ومقته للنزاعات راح أكبر يفكر في حلّ لمشكلة التعددية في مملكته. وكان تفكيره ممتزجًا بأميته وحدّته وكثرة المعلومات في ذهنه.

رأى أن اللغة الاوردية استطاعت أن تسود في الهند منذ عهد المغول، وهي خليط من اللغة الفارسية وهي لغة الأدب والمثقفين في الهند، واللغة التركية وهي لغة الجيش المغولي، واللغة الهندية. فهل يمكن جمع كلّ الأديان في مزيج موحّد وتحويلها إلى معتقد واحد؟!

راحت هذه الفكرة تنضج في ذهنه على مرّ الأيام وكلما خطا

على هذا الطريق خطوة وجد أن العقبات أكثرة، ولكنه لم ينثن عن مواصلة الطريق. لم يكن يفكّر في الصواب من الأفكار والمعتقدات بقدر ماكان يفكّر في توحيدها ودمجها وصهرها في بوتقة واحدة.

كان أكبر مسلمًا ومن الطبيعي أن يتجه في بداية أمره إلى أن يتبين الطريق السوي بين الفرق الإسلامية، ولكنه لم يستطع أن يتبين الطريق من شدة الأضواء التي كانت على جانبيه وفي وسطه ولاختلاف ألوانها. ولكنه كان في نفس الوقت طريقًا مضرجًا بالدماء مليئا بالمآسي التي خلفها صراع متطاول بين الفرق الإسلامية.

وخلال تفكيره بحل لقضايا الاختلاف المذهبي يصاب بأزمات نفسية حادّة حتى لتجده فجأة قد امتطى صهوة جواده المسمّى «حيران» فيطلق له العنان إلى أيّ اتجاه شاء الحصان، ويظل حيران منطلقًا، ويظلّ اكبر يحثّه على المضي، حتى يعجز عن الركض، وإذا أكبر في مكان موحش، فيجلس يعيش مع أفكاره وخيالاته ساعات طوالا.

ولقد بلغت بأكبر الحيرة في تحقيق فكرته أن جمع عددًا من الأطفال وربّاهم بعيدًا عن تأثيرات المجتمع ليعرض عليهم الأديان والمذاهب والعقائد، لعل فطرتهم تهديهم إلى الدين الفطري الأصيل. ولكنه فوجئ أن هؤلاء الأطفال بسبب عزلتهم تحولوا إلى جماعة من البكم لا تعي شيئا.

عبادة خانه

في خطوة لفتح باب النقاش بين أصحاب الملل والنحل بنى أكبر «عبادة خانه» ليجمعهم فيه، وليتجادلوا في أمور الدين ويتحاججوا وليدافع كل واحد عن معتقده. أسسها في «فتحپور» ودعا إليها علماء المسلمين سنة وشيعة ودعا إليها أيضًا رجال الدين البراهمة والزرادشتيين، كما دعا إليها المبشرين البرتغاليين القادمين إلى الهند، وكان يجلس هو إلى جانبهم ويستمع إلى مناقشاتهم ويطرح عليهم الأسئلة تلو الأسئلة.

لم تكن هذه طبعًا طريقة صحيحة لاستبيان الحق، بل إن مثل هذه المحافل عادة تثير خلافات وهمية وجدلا عقيمًا، ولا تسفر إلا عن مزيد من اللجاج والخصومة، لأن كل طرف من الأطراف لا يستهدف الا إفحام خصمه بأية وسيلة حتى ولو عن طريق السفسطة اللفظية واللف والدوران. ومن الطبيعي أن لا يتحقق ما أراده أكبر من هذه الجلسات.

المذهب الإلهي

حين يئس أكبر من الوصول إلى وحدة في الآراء عن طريق «عبادة خانه» وقع في خطأ فادح آخر هو دعوته إلى مذهب يضم ـ على رأيه ـ حسنات كل الملل والنحل، وأطلق عليه اسم «المذهب الإلهي».

و«المذهب الإلهي» الذي دعا اليه أكبر يطالب الناس بأن يعبدوا ربًا واحدًا، وأن يكون أكبر ظلّه على الأرض. وأن يعيشوا

نباتيين لا يشربون الخمر، ولا يكذبون . كما منع بموجب هذا المذهب بعض العادات المنافية للإنسانية مثل: «الساتي»، وهو أن تنتحر الأرملة التي لا أطفال لها في أعقاب وفاة زوجها. وأحلّ أكبر زواج الهندوكيات الأرامل، وكان محرمًا. ومنع الزواج إذا كان الرجل والمرأة تفاوت سنيّ فاحش، كما منع الزواج من الفتيات الصغيرات، والتزاوج بين الأقرباء.

والواقع أن هذه التعليمات لايمكن اعتبارها مذهبًا مستقلاً، وكان بإمكانه أن يطلب من كل المذاهب العمل بها، ولكنه فرضها باعتبارها المذهب الذي يجب أن يدين به الجميع، مما أثار حساسيات المسلمين بشكل خاص، لإيمانهم بأن مصدر الإسلام هو القرآن والسنّة، ولا يستطيع أكبر أن يغيّر شيئًا، وبذلك دخل في خصومة مع المسلمين. وهذه الخصومة استغلها الهندوكيون والمبشرون البرتغاليون، فتقربوا إلى أكبر، وأصبحوا موضع اعتماده أكثر من المسلمين.

التآمر الصليبي

كان عصر أكبر مقرونًا بعصر النشاط التجاري البرتغالي في البحار، واحتلال الموانئ وطرق الملاحة البحرية. وكانت البرتغال مهتمة بنشر المسيحية في هذه الموانئ والطرق، فأرسلت الآباء الجزويت إلى هذه المناطق، وانتشروا في شبه القارة الهندية، ونالوا حظوة عند أكبر، ولفتوا نظره بما يحملونه من علوم عصرية إضافة إلى علومهم الدينية، مما جعله يعيّن أحد هؤلاء الآباء

لتدريس ابنه سليم.

والآباء الجزويت كانوا معروفين بتعصبهم ضد المسلمين، بل كانوا في الواقع يقودون تحت راية البرتغال في كل العالم حملة صليبية معادية للإسلام والمسلمين. وهذا ماجعل «سليمًا» يفرغ من أي إيمان بمجتمعه وبحقوق والده عليه، فأعلن على والده ثورة كادت أن تدمّر الامبراطورية، وحاول أن يستعين بالبرتغاليين على والده. غير أن والده عالج الموقف وأعاد الابن العاق إلى جادّة الصواب.

وكان الآباء الجزويت يطمعون أن يميل أكبر إلى المسيحية ويعتنقها، وفي مذكراتهم يصرحون بأن أكبر لو فعل ذلك للعب دورًا رائعًا في تاريخ المسيحية لايقل عن الدور الذي لعبه قسطنطين الأول حين اعترف بالمسيحية فانتشرت بسرعة في الدولة الرومانية. ثم تتحول هذه المذكرات إلى حديث غير ودي عن أكبر حين يئسوا من كسبه ولم يظفروا منه بطائل.

نهاية اكبر

يظهر أن أكبر في آخر حياته وقف على أخطائه، فعاد إلى حضيرة الإسلام، وهدم عبادة خانه التي لانجد لها أثرًا في «فتحپور». غير أنه فوّت على المسلمين فرصة عظيمة من فرص قوتهم. صحيح أن هدفه في توحيد الأمة الهندية كان ساميًا، لكن منهجه كان خاطئًا، فلم يوحّد، ولم يدفع بلاده على طريق النمو.

كما أن الثغرة التي فتحها أكبر ـ ضمن مشروعه ـ أمام

تدخل الآباء المسيحيين البرتغاليين اتسعت بمرور الأيام وأسقطت شبه القارة الهندية بأجمعها في قبضة المستعمرين.

استخلاص العِبرَ

حالة التمزق والصراع الديني لايمكن أن يقبلها أي إنسان حريص على كرامة أمته وعزّتها ورفعتها، إذ لا يتحقق شيء من هذا إلا في ظلّ الوحدة. من هنا لابدّ من مشروع علمي إسلامي للوحدة وتقريب فصائل الأمة ومذاهبها. وإن لم يدخل هذا المشروع ساحة العالم الإسلامي فإن مشاريع منحرفة أو علمانية ستحلّ محلّه. سيرتفع الصوت من أفراد يعيشون الوحدة على مستوى العاطفة لا العلم فيقدمون مشاريع ناقصة أو منحرفة مثل وحدة المذاهب ووحدة الأديان، ويثيرون زوبعة سرعان ما تخمد لتخلف وراءها مزيدًا من التمزق والتعصب. أو يرفع الدعوة إلى الوحدة علمانيون يقدمون مشاريع قومية أو وطنية أو طبقية لتكون بديلة للمشروع الإسلامي، فيلغون بذلك حقيقة راسخة في أعماق هذه الامة هي حقيقة «الدين»، ويصطدمون بالفطرة والواقع وبالمحتوى النفسي والفكري للأمة التي ينشدون توحيدها، فلا يجنون إلا الخيبة والفشل.

وكل هذه الظواهر السلبية: ظواهر طرح المشاريع الناقصة والمنحرفة والعلمانية نسمع بها ونراها في الساحة الإسلامية، وكلها تؤكد ضرورة تقديم أطروحة التقريب على قاعدة علمية رصينة مدروسة واقعية.

إفرازات الموروث الطائفي
في القرن العشرين

• كان الاختلاف المذهبي قائمًا في دور العلم فما بالك بعامة الناس! • يركز الشيخ القمي على دور السياسة في إثارة الفرقة بين المسلمين • في سياق الاثارات الطائفية تُرجمت بعض كتب الإمام الخميني مُحَرّفة • لا تزال الطائفية تُجنّد لتحقيق أهداف الهيمنة.

نستطيع ـ مع شيء من التسامح ـ أن نقسم الحالة الطائفية في القرن الماضي على ثلاث مراحل:

ـ مرحلة النصف الأول من القرن.

ـ مرحلة النصف الثاني من القرن حتى السبعينيات.

ـ مرحلة العقدين الأخيرين.

في النصف الأول من القرن الماضي نرى العالم الإسلامي غارقًا في المشاكل التي خلقتها ظروف الاحتلال والتقسيم والسيطرة، وكان من المتوقع أن تتجه كل الجهود لمواجهة هذه المشاكل دون أن يبرز للطائفية رأس في الساحة، لكن التركة الثقيلة أبت إلا أن تعبر عن نفسها بأشكال شتى.

لقد كان الاختلاف المذهبي قائمًا في دور العلم فما بالك بعامة الناس، يقول الشخ عبد المجيد سليم سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م

حين كان رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، ووكيل جماعة التقريب: «ولقد أدركنا الأزهر على أيام طلبنا العلم، عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ولكن الله أراد لنا أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد، وتطهر الأزهر من أوبائه، فأصبحنا نرى الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي إخوانًا متصافين..».

وعن الحالة الطائفية في النصف الأول من هذا القرن يكتب الشيخ محمد تقي القمي مؤسس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة: «كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب، يثير الشجن، فالشيعي والسني كل كان يعتزل الآخر، وكل كان يعيش على أوهام ولدتها في نفسه الظنون أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكام، أو زينتها له الدعاية المغرضة، وساعد على بقائها قلة الرغبة في الاطلاع».

ردود الفعل السلبية تجاه العملية التقريبية الضخمة التي نهضت بها دار التقريب في القاهرة تبين جانبًا من الموروث الطائفي في هذه الفترة. فبعد خمس سنوات من تأسيس الدار نرى افتتاحية مجلتها تشير إلى «أفراد في كل طائفة لاهمّ لهم إلا أن ينبشوا عن الهنات، ويضخّموا الهفوات، ويأخذوا أرباب المذاهب بأقوال عامتهم ضاربين صفحًا عن تحقيق خاصتهم، كفعل ذوي المآرب من المستشرقين، يحكمون على الإسلام عامة بما يرونه من الآراء الشاذة في بعض الكتب. ويتحدث رئيس التحرير في هذه الافتتاحية لأول مرة بعد صدور المجلة عن ذوي القلوب الجاحدة،

والعقـــول الجامـــدة، والأقـــلام الشـــاردة، والنفـــاثين في العقـــد، والمصدرين عن الضغينة والحسد..».

ويركـز الشـيخ محمـد تقـي قمـي علـى دور السياسـة في إثـارة الفرقة بين المسلمين قبل عصر الاستعمار وبعده، فيقول: «أجل لقد ظلت الفرقة بين السملمين غذاءً مناسبًا للحكم والحكام قرونًا عـدة، دأب فيهـا كـل حـاكم علـى اسـتغلالها لتثبيـت سـلطانه، ولتحطـيم عـدوه، ثـم جـاءت السياسـات الأجنبيـة فوجـدت في هـذه الفرقـة خير وسيلة لتدخلها، وبـث نفوذهـا ودعـم سـلطانها وفـرض سيطرتها».

وتشـكل سيطرة الملك عبد العزيز آل سـعود علـى الحجـاز سـنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م منعطفًـا مهمًـا في تـاريخ الصـراع الطـائفي علـى صعيد العـالم الإسلامي. لقد استطاع عبـد العزيـز بعد هـذه السـنة أن يسـيطر علـى مقاتليـه مـن الحركـة الوهابيـة المسـمون بـالإخوان ونهـاهم عـن غـزو العـراق وشـرقي الأردن، وبـذلك خـف الصـراع الوهابي العسكري مع العـالم الإسـلامي، لكـن الصـراع المـذهبي بقي مستمرًا، وتجلى بأبشع صوره في حادثة مقتـل الحـاج الإيرانـي أبـو طالـب اليـزدي سـنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م؛ الـتي أدت إلى قطـع العلاقـات الإيرانيـة – السـعودية لأعـوام، والحادثـة يرويهـا أحـد المتابعين لها إذ يقول:

«حدثت حادثة هزّت كل المخلصين، واستحثّت كل المهتمين بمصير الأمة الإسلامية. لقد أعلن نبأ قتل إيراني من الشرفاء هو

السيد أبو طالب اليزدي في موسم الحج بأرض الحجاز؛ لأنه أراد أن يهين الكعبة. وانشدّت الأنظار إلى السعودية لتستطلع الخبر. فجاء التحقيق مذهلاً مؤلمًا يعبّر عن جو فظيع من انعدام الثقة والشبهة والتهمة بين المسلمين.

أصيب الرجل في الطواف بحالة غثيان، فأراد الخروج من بين الطائفين، لكنه لم يتمالك نفسه، حرص على أن لا يلوث أرض المسجد، فجمع ثيابه وألقى قيأه فيه. ثم أسرع للخروج، فاستوقفه شرطي وسأله عما يحمله، فلما رأى ما رأى ولم يفهم من السيد أبو طالب توضيحاته بالفارسية، أخذه وسلّمه إلى القضاء. وهناك أيضًا لم يفهموا ما يقوله الرجل، فأفرزت ذهنيات القضاة هناك مايلي: إن هذا الرجل إيراني، والإيرانيون عادة لا يحجّون بيت الله الحرام وإنما يحجون كربلاء والنجف!! وهم يأتون إلى بيت الله الحرام بقصد إهانته، وما يحمله هذا الإيراني إنما كان يستهدف به تنجيس الكعبة، ثم حكموا عليه بالإعدام.. وضربوا عنقه!!!.

هذا نموذج واضح على نجاح الخطة الاستعمارية في إيجاد فصل نفسي وشعوري واعتقادي بين المسلمين».

هذا الحادث هزّ الشيخ محمد تقي القمي، كما هزّ الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي، لكنه لم يحركه في اتجاه سلبي، لم يدفعه إلى الانتقام من أهل السنة، بل إلى الانتقام من الجهل والفرقة وكل العوامل التي أدت إلى هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر المؤلمة.

فكر في الأمر مليًّا، وقرر أن يتحرك لكسر حواجز العزلة بين السنة والشيعة، وكان لابد أن يكون هذا التحرك في مركز قادر على أن يشعّ بتأثيره على كل العالم الإسلامي. وليس أفضل لهذا الأمر من الأزهر والقاهرة.

ومن الطبيعي أن تواصل قوى الهيمنة العالمية نشاطها في مواجهة حركة التقريب التي تصاعدت في هذه البرهة، من ذلك مايرويه أحد المتابعين لحركة التقريب عن حادثة اقترنت بعزم الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر على إصدار فتوى بجواز التعبد بفقه الشيعة، وكان ذلك قبل عشر سنوات من صدور فتوى الشيخ شلتوت بهذا الشأن.

يقول: «هيأ الشيخ أذهان جماعة التقريب وأفكارهم لهذا الأمر. وتقرر دراسة صيغة الفتوى في جلسة تعين وقتها. وقبل أسبوع من تلك الجلسة المقررة وصلت إلى جميع أعضاء جماعة التقريب طرود بريدية مبعوثة من عواصم أوروبية مختلفة، أرسلت على عناوينهم في محل عملهم، وأرسل نظيرها على عنوانهم في بيوتهم، وهي تحمل ما ينسف فكرة إصدار الفتوى.

الأمر عجيب، والتخطيط دقيق، ومتابعة القوى الشيطانية لنشاط التقريب حثيث.

في توقيت دقيق تحركت هذه القوى للوقوف بوجه خطوة هامة من خطوات التقريب.

حضر الأعضاء في الجلسة المقررة وهم يحملون تلك الطرود،

والغضب باد على وجوههم، وجلس الشيخ عبد المجيد في مقدمة المجلس، وإذا بالأعضاء يرفعون صوتهم دفعة واحدة، ويتحدثون بلهجة غاضبة قائلين: أتريدون أن نصدر فتوى في جواز العمل بفقه الشيعة وهم يعادون الصحابة! ثم فتح كل منهم طرده وأخرج منه كتابًا منسوبًا إلى أحد علماء الشيعة يتحامل فيه على الخليفتين الأول والثاني. وقالوا: هذه وثيقة تبين طبيعة الشيعة وأفكارهم تجاه الخلفاء فماذا تقولون؟

يقول الشيخ القمي استولى عليّ الوجوم، فما عدت قادرًا على الكلام في هذا الجو المتشنّج. نظرت إلى الشيخ عبد المجيد فرأيته ينظر إلى كل واحد من المتكلمين بهدوء وطمأنينة كأنه يريد أن يستفرغ منهم شحنة غضبهم. وعندما تكلم الجميع وساد الجو هدوء نسبي، تناول الشيخ سليم الحديث، وقال باتزان ووقار: هلا سألتم أنفسكم من أين جاءت هذه الطرود؟ وما هو هدف مرسليها؟ ولماذا أرسلوها في هذا الوقت بالذات؟ ثم استرسل في الحديث قائلا: لو أن الشيعة والسنة لم يكن بينهما اختلاف لما احتجنا إلى التقريب وإلى جماعة التقريب ودار التقريب ومجلة رسالة الإسلام، لكننا بعد علمنا بوجود الاختلاف نهضنا بهذا المشروع؛ كي نركز على المشتركات ونقلل الاختلافات ونزيل الشبهات. ثم انظروا إلى هذه الأيدي التي فعلت فعلتها بطباعة كتاب يثير حساسيات أهل السنة تجاه الشيعة في أوروبا، وأرسلته في هذا الوقت الحساس إليكم، أهي حادبة على أهل السنة؟ أيهمها مصلحة المسلمين؟ وهلا سألتم أنفسكم عن صحة نسبة

هذا الكتاب إلى مؤلفه؟ ولو قدر أن هذه النسبة صحيحة، فهل ماجاء فيه يخرج المسلم من دائرة الإسلام ويفكه من رباط الأخوة الإسلامية؟ واسترسل يتحدث بلغة رصينة مستحكمة. هدأ الجو، ولكن صدور الفتوى تأخر عشر سنوات حين أقدم الشيخ محمود شلتوت على تنفيذ المشروع».

وشهد النصف الأول من القرن الماضي موجة من الكتابات التي تثير الحزازات الطائفية أعقبتها ردود تتناوب بين العلمي والمنفعل، وأشهر هذه الكتب: «محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ محمد الخضري، و«كتاب السنة والشيعة» للسيد محمد رشيد رضا، وكتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» لعبد الله علي القصيمي، وكتب «فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام» لأحمد أمين، و«الوشيعة في نقد عقائد الشيعة» لموسى جار الله، وتصدى للرد على هذه الكتب وأمثالها: الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي في موسوعته الغدير، والسيد محسن الأمين في موسوعته «أعيان الشيعة»، والسيد عبد الحسين شرف الدين في مؤلفاته المختلفة.

أما النصف الثاني من القرن الماضي حتى نهاية السبعينات فقد شهد صراعًا بين أنصار الطائفية وأنصار التقريب، ظهر فيه الموروث الطائفي مقرونًا بالصراع القومي، وتكرست أدبيات الطائفية على إضفاء الطابع الفارسي على التشيع والطابع العربي على التسنن، وعلى إثارة محن التاريخ والخلافات، وشهدت منطقة شبه القارة الهندية اشتباكات طائفية دامية، كما شهدت

الساحة صدور الفتاوى بتكفير هذه الطائفة أو تلك، وهي امتداد لفتاوى سابقة كانت تصدر عن علماء الدولتين العثمانية والصفوية.

وتكرس في هذا العصر الانفصال النفسي بين إيران والعرب مستمدًا جذوره من الروح الطائفية إضافة إلى الروح القومية. وظهرت موجة من المؤلفات في التاريخ وتاريخ الأدب في العربية والفارسية تكرّس هذا الانفصال، تحت عناوين نشأة التشيع، والشعوبية، والزندقة، وأمثالها، وكان النزاع السياسي بين عبد الناصر والشاه من عوامل تأجيج هذا الصراع.

وبعد سقوط الشاه وقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩، دخل الصراع الطائفي مرحلة جديدة، فمن جهة كان على رأس هذا التحول فقيه شيعي قاد الشعب الإيراني من منطلق الولاية في الفكر الشيعي، وأقام دولة على أساس فكر مدرسة أهل البيت، ومن جهة أخرى أثار هذا التحول مخاوف كثيرة من انتقال النموذج الإيراني إلى المنطقة خاصة وأن تأثير الثورة الإسلامية في إيران قد هزّ العالم الإسلامي باتجاه صحوته. فاتخذت حياله كل السبل لتطويقه وتحجيمه، ومن تلك إثارة عاصفة طائفية بوجه إيران، وطالت هذه العاصفة معظم الشيعة في البلدان المختلفة. واتخذت هذه العاصفة عناوين عدة منها: التشكيك في نوايا الثورة الإسلامية تجاه أهل السنة ، وتآمر الفرس التاريخي على الإسلام، وانحراف الشيعة عن القرآن والسنة، بل واتجهت هذه الموجة إلى الطعن حتى في تواتر القرآن

عند المسلمين؛ إذ زعمت أن الشيعة يمتلكون قرآنًا غير هذا المصحف، وأنهم يؤمنون بتحريف القرآن.

وفي هذا السياق ترجمت بعض كتب الإمام الخميني محرفة إلى اللغة العربية، فتصدى المرحوم الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا أستاذ الأدب الفارسي في جامعة القاهرة لواحدة من هذه الترجمات، وبيّن مافيها من تحريف، وأقام دعوى على المترجم.

وفي هذه الفترة بالذات تصاعدت نشاطات أنصار السنة في باكستان ضد الشيعة، وصدرت مجموعة كتابات «إحسان إلهي ظهير» للطعن في الشيعة.

كما اتجهت الجهود إلى إثارة خلافات طائفية داخل إيران بين أهل السنة والشيعة عبر السفارات وعبر الإعلام، وكانت بعض الإذاعات الموجهة باللغة الفارسية إلى إيران تركز على هذه الإشارات الطائفية، ومنها إذاعة إسرائيل.

خفت هذه العاصفة إلى حدّ كبير بعد أن وضعت الحرب العراقية ـ الإيرانية أوزارها ، وبعد أن تحسنت العلاقات الإيرانية العربية، وذابت إلى حدٍ كبير سدود عدم الثقة بين إيران وبلدان الجوار العربية.

لكن العامل السياسي لايزال يلعب دوره في إثارة النزاعات المذهبية، ولاتزال الطائفية تُجند لتحقيق أهداف الهيمنة، وهذا مانشهده في باكستان وأفغانستان والعراق بوضوح، وستبقى مستمرة حتى يرتقي العالم الإسلامي إلى المستوى الذي تتطبه حياة العزة والكرامة والاستقلال على الساحة العالمية.

استئناف الحركة الحضارية والتقريب

• الأماني وحدها لا تكفي لتحقيق هدف التقريب • ظاهرة الصراع المذهبي من عوارض مرض توقّف الحركة الحضارية • كل تعاليم الإسلام تتجه نحو تحرير الإنسان من حالة الجمود • الإسلام جعل هموم القبائل العربية المتصارعة همومًا رسالية عالمية • المجتمع المتحضّر تسود فيه روح الحوار والتفاهم • لابدّ من إحياء المثل الحق وروح العزّة والتربية العرفانية • التوجه التربوي والإعلامي في مجتمعاتنا غالبًا ما يركز على الارتكاس في المصالح الذاتية • الإسلام غرس روح العزّة في نفوس أتباعه بأساليب مختلفة • المسألة المهمة في العزّة هو توجيه الأمة إلى مصدر عزّتها الحقيقي.

التقريب بين المذاهب الإسلاميّة هدف يتطلّع إليه كل المهتمين بعزّة أمتهم وكرامتها وسؤددها، غير أن الأماني وحدها لا تكفي لتحقيق هذا الهدف الكبير، ولابدّ من تقصّي جذور هذه الظاهرة وتقديم العلاج الأساس لها كي لا تضيع الجهود فيما لا طائل تحته. وفي اعتقادنا أن ظاهرة الصراع المذهبي هي عارض من عوارض مرض عضال ألمّ بالعالم الإسلامي يتمثل في توقّف حركته الحضارية. وهذا المرض له عوارض كثيرة، أهمّها التمزّق والتشتت، ويظهر هذا التمزّق والتشتّت في ألوان شتّى، تارة على

شكل مذهبي وآخر على شكلٍ قومي، وأحيانا على شكلٍ قبلي أو قطري أو إقليمي أو... المهمّ أن يكون هناك تمزّق بأي شكل من الاشكال.

من هنا فإن معالجة الخلاف المذهبي بدون الاتجاه إلى جذور هذه الظاهرة شأنها شأن من يعالج طفحًا جلديًا ناتجًا عن مرض كبدي عن طريق تضميد هذا الطفح ، بينما العلاج الاساس أن يتجه إلى الكبد نفسه.

الحركة الحضارية

لسنا مبالغين إذا قلنا إن الدين هو دفع الجماعة البشرية نحو الحركة الحضارية، ذلك لأن الحضارة هي مقدار ما تحققه البشرية من مكتسبات في حقل تقدمها المادّي والمعنوي. وكل تعاليم الإسلام تتجه نحو انتشال الإنسان من وهدة الركود والخمود والجمود لتدفعه نحو حركة لامتناهية في مضمار تحقيق الانتصارات على صعيد تسخير الطبيعة وممارسة عملية الاستخلاف، وعلى صعيد السموّ النفسي والروحي والخروج من شرنقة الذاتية ومن أوحال النزعات الهابطة.

جزيرة العرب كانت قبل ظهور الإسلام تفتقد المشروع الحضاري، لذلك كانت تعيش صراعًا قبليًا رهيبًا، وأيام العرب تشهد على ذلك، والشعر الجاهليّ الذي يصوّر هذا الصراع يحكي عن ظاهرة سائدة لا يستطيع الجاهليّ إلاّ أن يمارسها

وكأنها جزء من حياته اليوميّة. يقول الشاعر مصورًا هذه الروح الجاهليّة التي عاد الحنين اليها في العصر الأموي:

ومن تكن الحضارة أعجبته فأيّ رجال بادية ترانا
ومن ربَطَ الجحاش فإنّ فينا قَنًا سُلُبًا وأفراسًا حسانا
وكنَّ إذا أغرنَ على قبيلٍ فأعوزهنّ كون حيث كانا
أغرن من الضباب على حِلال وضُبّة إنّه من حان حانا
وأحيانًا على بكرٍ أخينا إذا ما لم نجد إلاّ أخانا

ويلفت النظر في هذه الأبيات استعمال كلمة «الحضارة» أمام «البادية»، وهذا التقابل ورد في الأحاديث الإسلاميّة التي تنهى عن التعرّب بعد الهجرة، أي الانتقال إلى البادية بعد الهجرة إلى المدينة، والنهي في هذا المجال شديد يقرب من التكفير. ذلك لأن الحضارة تحتاج إلى حياة مدنية، ولايمكن أن يتحقق ذلك في البداوة.

ويلفت النظر في هذه الأبيات أيضًا أن الإعراض عن الحياة الحضارية يقترن بالصراع مع أي كان ، فإذا لم يجدوا قبيلة غنية هاجموا قبيلة ضعيفة.. وإذا لم يجدوا ذلك أيضًا أغاروا على إخوتهم من بني بكر.. المهم الغزو والصراع.

وحين قدّم الإسلام مشروعه الحضاري لهذه القبائل المتصارعة، جعل همومها رسالية عالمية، وحركها على طريق الأهداف الكبرى، وبقدر ما استطاع الإسلام أن يخلق حركة حضارية في المجتمع استطاع أيضًا أن يتغلّب على التمزّق والصراع. وكل ظواهر الصراع التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصر صدر

الرسالة أو بعده إنّما كان بسبب الرواسب القبلية المضادة للتوجّه الحضاري.

ومع كل ماعصف بالحياة الإسلامية في القرنين الأول والثاني من معوّقات قبلية وقوميّة وسياسية فإن الدفعة الحضارية العظيمة التي أوجدها الإسلام في نفوس أبنائه ظلّت متواصلة متنامية تؤتي أكلها كلّ حين، وأدّت إلى خلق حضارة لا ينكر عظمتها أحد، ودفعت بحركة التقدّم العلمي والاجتماعي نحو ميادين واسعة.

التقريب في ظل الحركة الحضارية

لواستثنينا بعض الظواهر الشاذة التي برزت بين الجهلة البعيدين عن التوجّه الحضاري في القرون الإسلامية الأولى، لرأينا أن المجتمع الإسلامي المتحضّر يطفح بألوان الظواهر التي تدلّ على سيادة روح الحوار والتفاهم وقبول الرأي الآخر والتعايش القومي والمذهبي. ويبرز ذلك بأجلى صوره في العلاقات بين أئمة المذاهب والعلماء والادباء على اختلاف انتماءاتهم الفكرية.

وإذ لا نستطيع هنا استعراض تلك الصور كلّها أنقل ماذكره اليعقوبي في تاريخه عن مجلس من مجالس البرامكة في عصر الحركة الحضارية.

جاء في مروج الذهب: «كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور، والقدم والحدوث،

والإثبات والنفي، والحركة والسكون، والمماسَّة والمباينة، والوجود والعدم، والجر والطفرة، والأجسام والأعراض، والتعديل والتجريح، ونفي الصفات وإثباتها، والاستطاعة والأفعال، والكمية والكيفية والمضاف، والإمامة أنص هي أم اختيار، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول، والفروع، فقولوا الآن في العشق عَلَى غير منازعة، وليورد كل واحد منكم ماسنح له فيه، وخطر إيراده بباله.»

فقال علي بن هيثم (وكان إمامي المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة): أيها الوزير، العشق ثمر المشاكلة، وهو دليل تَمازُج الروحين، وهو من بحر اللطافة ، ورقة الصنيعة، وصفاء الجوهر وليس يحدُّ لسعته ، والزيادة فيه نقصان من الجسد.

وقال أبو مالك الحضرمي، وهو خارجي المذهب (وهم الشراة): أيها الوزير، العشق نَفْثُ السحر، وهو أخفى وأحرّ من الجمر، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين، وامتزاج الشكلين، وله نفوذ في القلب كنفوذ صَيِّب المُزْنِ في خلل الرمل، وهو ملك على الخصال، تنقاد له العقول، وتستكين له الآراء.

وقال الثالث: وهو محمد بن الهذيل العَلاّف ، وكان معتزليَّ المذهب وشيخ البصريين: أيها الوزير، العشق يَخْتم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتقى في الأجساد، ومسرعة في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون، متغير الأوهام، لا يصفو له موجود، ولا يسلم له موعود، تسرع إليه النوائب، وهو جرعة من نقيع الموت، وبقية من حياض الثكل، غير أنه من أريحية تكون في الطبع،

وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبه جَواد لا يُصْغي إلى داعية المنع، ولا يسنح به نازعُ العذل.

وقال الرابع – وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته وكبير الصنعة في عصره - : أيها الوزير، العشق حِبَالَةٌ نَصَبَها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص في النوائب، فإذا عَلِقَ المحب في شبكتها ونشب في أثنائها فأبعد به أن يقوم سليمًا أو يتخلص وشيكًا، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة، وتكافؤ في الطريقة، وملاءمة في الهمة، له مقتل في صميم الكبد ومهجة العقل، يعقد اللسان الفصيح، ويترك المالك مملوكًا، والسيّد خَوَلاً حتى يخضع لعبد عبده.

وقال النَّظام إبراهيم بن يَسَار المعتزلي (كان من نُظَّار البصريين في عصره): أيها الوزير العشق أرَقُّ من السراب، وأدبّ من الشراب، وهو من طينة عَطِرَة عُجنت في إناء الجلالة، سحابة غزيرة تهمي على القلوب، فَتُعْشِب شعفًا، وتُثْمر كلفًا، وصريعُه دائم اللوعة، ضيّق المتنفس، مُشارف الزمن، طويل الفكر، إذا أجَنَّه الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى.

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومَنْ يليهم، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب، وفيما مرّ دليل عليه.

والموضوع الذي دار فيه الحديث (العشق) له ما يشابهه عند اليونان، ثم إن الموضوع تبلور فيما بعد وبلغ قمته على يد أهل

العرفان الإيرانيين أمثال سنائي والعطار وحافظ والمولوي.

وهـذه الروايـة تشـير إلى حقيقـتين: الاولى اجتمـاع أصـحاب المذاهب المختلفة في مجلس حوار مفتوح. والثانية: الإشارة إلى قدرة «العشق» على توحيد القلوب، وهذا ما سأستعرضه لاحقًا.

الاستئناف الحضاري

قضية الاستئناف الحضاري من الأمور التي يجب أن يفكّر بها كلّ المهتمين بشؤون العالم الإسلامي وأن يضعوها في أولويات اهتماماتهم لأنها العامل الوحيد لإزالة مظاهر التخلف في مجتمعاتنا والسبيل الأمثل لاستعادة عزتنا وكرامتنا.

ولعل الباحث المسلم يستطيع أن يستنتج دون عناء من محتوى الإسلام ومن مسيرته التاريخية أنّ الحضارة الإسلامية _ وإن كادت أن تتوقف عن الحركة منذ قرون ـ تمتلك جذورًا عميقة في تربة هذه الامة وفي عقيدتها وأفكارها وعواطفها، مما يؤهلها لاستئناف مسيرتها من جديد، إن توفّرت لها الظروف المواتية.

والظروف المواتية لابد أن تتظافر على إيجادها كل عناصر التأثير في المجتمع الإسلامي من مدارس وجامعات ووسائل إعلام مرئية ومسموعة ومقروءة وفنون جميلة، وأهمّ من ذلك الأسرة وخاصة الأم بما لها من تأثير كبير على تنشئة الثقافة التي تشكل الطاقة الحرارية للحركة الحضارية.

وفي رأينا أن أهمّ المحاور التي يجب أن تتجه إليها عناصر التأثير هي: **إحياء المثل الأعلى الحق، وإحياء روح العزّة، والتربية العرفانية**.

المثل الاعلى

لكل فرد وجماعة بشرية مثل أعلى، هذا المثل الاعلى أو الإله بالتعبير القرآني إما أن يكون مطلقا وهو اللّه الواحد الأحد سبحانه، وإما أن يكون سرابيًا كالمثل العليا التي ظهرت في التاريخ القديم والمعاصر ثم انهارت لأن الجموع البشرية العطشى حسبتها ماءً حتى إذا جاءتها لم تجدها شيئًا، وإما أن يكون مثلاً أعلى هابطًا كالأهواء الهابطة التي يتخذها بعضهم إلهًا.

وحين يكون المثل الاعلى هو اللّه سبحانه فإنه يحرك المسيرة البشرية على طريق لانهاية له من العلم والعزّة والقدرة والعطاء والرحمة والخير والبركة، لأن كل هذه هي من صفات المثل الاعلى الحق سبحانه. وحينما يكون المثل الأعلى سرابيًا فانه يحرّك الجماعة البشرية نحوه أمدًا ثم ينهار، وتصاب الجماعة بالخيبة والتقهقر. أما إذا كان المثل الاعلى هابطًا فان الجماعة البشرية تراوح في مكانها ولا تتقدم، ويعيش كلّ فرد همومه الصغيرة ومصالحه الخاصة التي تصطدم عادة بمصالح الآخرين، فينشأ ثمة النزاع والصراع. ومجتمعاتنا الإسلامية - بنظرة موضوعية - أقرب إلى تبني هذا المثل الاعلى الهابط.

التوجّه التربوي والاعلامي في مجتمعاتنا غالبًا مايركّز هذا السقوط في المصالح الذاتية، وكأن غاية الإنسان في الحياة هي الاستزادة مما يحقّق هذه المصالح. أفلامنا ومسلسلاتنا وأدبياتنا قلّما تتجه نحو تقديم مثل أعلى يسمو على المصالح الذاتية، بل إنها غالبًا ما تركّز الذات باسم «الواقعيّة» وتحوّلها إلى إله تذبح

على معبده كل القيم والفضائل الإنسانية.

ليس الله سبحانه اسمًا فقط نردّده على ألسنتنا، وليس بيننا وبينه فاصلة جغرافية نتحرك نحوه، التوجّه إلى الله هو التوجّه إلى كل ما في هذا المثل الاعلى من صفات الجمال والجلال. وهكذا كانت حركة المسلمين المتحضرين نحو الله سبحانه.

من هنا فنحن بحاجة إلى نهضة شاملة للتحرك نحو الله بالمعنى الحضاري، نحتاج إلى أن نقدّم لجيلنا معاني التوحيد والعبادة والسير والسلوك إلى الله في هذا الإطار، كي تكون عبادتنا لله سبحانه طاقة حركية تمدّنا بالعود والمدن والتسديد في مسيرتنا الحضارية.

نحن بحاجة إلى انتشال مجتمعاتنا من التوجه إلى مثل عليا سرابيّة طالما جرّت على أمتنا الويلات بشعاراتها البرّاقة.

نحن بحاجة إلى انتشال شبابنا من السقوط في الذاتية والأنانية وضياع الأهداف الكبرى والهزيمة النفسية، وكل ذلك يتحقّق بتوجيه الأمة نحو الله توجيهًا يتناسب مع حاجة العصر ولغة العصر.

العزّة

العزّة مفهوم إنساني وإسلامي على غاية من الأهميّة وعكسه الذلّ الذي رفضه الإسلام واعتبره موتًا للفرد والمجتمع. والله سبحانه فوّض إلى الإنسان أمورَه كلَّها – كما في النصوص الإسلاميّة – إلاّ أن يكون ذليلاً.

وغرس الإسلام روح العزّة في نفوس أبنائه حين قدّم لهم مفهومه عن الإنسان بأنه خليفة الله في الأرض، وأن الله أقرب اليه من حبل الوريد، وأنه أكرم عندالله من الملائكة وأشرف من الكعبة.

وأهمّ مانهض به المصلحون الإسلاميون على مرّ التاريخ هو إعادة روح العزّة إلى المجتمع متى أوشكت عوامل الإذلال أن تستفحل فيه.

والعزّة موضوع بحثه الفلاسفة الأقدمون والمحدثون. فمنذ القديم تحدث أفلاطون عن «التيموس». وعرّفه بأنه رغبة الفرد والجماعة البشرية بكسب الاعتراف، ورأى أن الإنسان قد يضحي بنفسه من أجل ذلك لقوّة هذا النازع في كيان الإنسان. ولو أمعنّا النظر فيما يقدمه أفلاطون من توضيحات عن التيموس لوجدناه هو «العزّة» نفسها. ويذهب أفلاطون أن حركة التاريخ وراءها دافع التيموس الذي يجعل الفرد والجماعة يفكرون ويعملون لكي تكون لهم مكانة يُعترف بها بين الناس.

ثم جاء في أيامنا هذه «فوكوياما» ليتخذ من التيموس أساسًا لحديثه عما يسميه «نهاية التاريخ»، ذاهبًا إلى أن هذا التيموس يتحقّق بأعلى صوره في الليبرالية الديمقراطية، ومن هنا فإن هذه الليبرالية الديمقراطية هي في زعمه نهاية التاريخ. لانريد أن نناقش هذا الزعم، لكننا نريد أن نبين أهمية العزّة في الحركة الحضارية. فالعزّة هي مظهر الحياة، والمجتمع العزيز هو المجتمع الحي الذي تترابط أعضاؤه ترابطًا عضويًا بحيث إذا اشتكى منه

عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. والمجتمع الذليل ميّت لاحراك فيه ولا يوجد بين أجزائه ترابط عضوي، ولا تتأثر سائر الاعضاء إذا أصاب عضوًا من أعضاء الجسد مكروه.

وغرسُ روح العزّة يبدأ في الفرد من الأم والاسرة ثم المجتمع بمافيه من وسائل التأثير ومن ثقافة عامّة.

المسألة الاولى في العزّة هي توجيه الامة إلى عزّتها الحقيقية «من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعا» وتحذيرها من العزّة الكاذبة: « يبتغون عندهم العزّة ».

والمسألة الأخرى إبعاد المجتمع عن كل مايشعره بالذلّ والهوان والضعف وعدم القدرة.. لابدّ أن نكون حذرين جدًا من أي خطاب يزلزل روح الاعتزاز بالهوية والشخصية والثقافة والتراث والتاريخ، والاتجاه نحو كلّ ما يرسّخ في النفوس الشعور بكرامة الإنسان وعظمته ومسؤوليته الكبرى في هذا الوجود.

إن كثيرًا من خطابنا الإعلامي يغرس ـ مع الأسف ـ روح الذلّ والهزيمة واليأس والضعف والهوان في النفوس، ولابدّ أن نخطط في إعلامنا ومناهجنا الدراسية وتربيتنا العائلية لغرس روح العزّة والكرامة والشخصية والاعتزاز بالهوية وبالانتماء إلى الامة الإسلاميّة. فتلك مقدمة ضرورية وحياتية لاستئناف مسيرتنا الحضارية.

محمّد باقر الصدر

معالم لمشروع النهضة والهوية *

حيدر حب اللّه**

• في همّ النهضة يغلب علينا نقد ذواتنا وتحميل أنفسنا المسؤولية • نجد بعضنا ينزّه نفسه عن أيّ معضل ويحيل مشاكلنا الداخلية على الخارج • اعتقد الصدر أن طريقة تفكيرنا في معالجة الأُمور تعاني من مشكلة المنهج الفكري نفسه • تجربة السيد الصدر أثبتت أنّ بإمكاننا خدمة الدين وسدّ الكثير من الثغرات عبر هذا التنوّع المنهجي • لاحظ الصدر أنّ الأمة الإسلامية في زمنه ليست بحاجة إلى تكوين نظريات • كأن المفكّر المسلم يجلس في زاوية من زوايا بيته يفترض مشكلةً ربما لا وجود لها في الخارج • أفهل نضبت المشكلات العملية التي نشحذ بها ذهننا حتى نذهب إلى مشكلات لا وجود لها؟! • نحن نعاني من خلل في ميزان تنظيم الأولويات • السيد محمّد باقر الصدر أراد أن يغيّر طريقة رجوعنا إلى النصوص • أراد السيد الشهيد أن يحلّ مشكلة «لا واقعية الفكر» التي ابتلى بها المفكّر المسلم عدّة قرون .

---

*- نصّ المحاضرة التي ألقيت في مدرسة الإمام الخميني التابعة لجامعة المصطفى العالمية في إيران .

**- كاتب ومفكر ورئيس تحرير مجلة نصوص معاصرة.

الفكر الإسلامي المعاصر بين سؤال النهضة والهويّة

سؤال النهضة هو السؤال الذي شغل المفكّرين المسلمين منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ليدفعهم للتفكير في النهوض بالأمّة الإسلامية بعد تراجعها المرّ على المستويات الحضارية والفكرية وغيرها.

أما سؤال الهوية، فهو السؤال الذي عاد إلى الواجهة وبقوّة منذ الستينيات والسبعينيات ليبدي لنا الأمة مأزومةً قلقة في وضع لا تحسد عليه.

في سؤال النهضة أمارس النقد للذات، أمارس التفتيش عن أسباب التراجع والتقهقر، أمارس الطروحات الجديدة غير المكرورة؛ لأن المكرورة لو كانت مفيدةً اليوم بوضعها الحالي لما كنّا على الحال التي نحن عليها.

أما في سؤال الهوية، فأنا أخاف على نفسي، وأنتقد غيري الذي أحمّله مسؤولية ما يحصل في الواقع الإسلامي الكبير.

السيد الشهيد محمّد باقر الصدر (١٤٠٠هـ) جاءت أعماله كلّها للجواب عن هذين السؤالين؛ فقسم من أعماله يمكننا أن نحسبه على سؤال النهضة، أي هو محاولات نقدية في الداخل الإسلامي ووضع حلول للمشاكل الموجودة في تفكيرنا، وفي واقعنا في حياتنا الاجتماعية والسياسية، وفي رؤانا وقراءتنا. أما القسم الآخر من جهوده ومحاولاته فكان بهدف الحفاظ على الهوية والدفاع عنها أمام المخاطر القادمة من الخارج.

ولكي نصف أعمال السيد الصدر، نجده في بعض أعماله منشغلاً بهمّ الهوية، وفي بعضها الآخر منكبًا على همّ النهضة وقيامة الأمة الإسلامية، وأكبر مشكلة يعاني منها المفكّر المسلم تكمن في قدرته على التوفيق بين همّ الهوية وهمّ النهضة، لماذا؟

لأنه في همّ النهضة يغلب علينا نقد ذواتنا وتحميل أنفسنا المسؤولية، فنردّد دومًا: نحن تخلّفنا، نحن تراجعنا، نحن نعاني من خطأ ما في تفكيرنا وفي عقلنا الجمعي. أما في همّ الهوية فنتّجه إلى الخارج، أنا أدافع، أضع مربّعًا وأضع هويتي داخل هذا المربع، هويتي الحضارية والإسلامية والمذهبية، أو على تيارات أُخرى هويتي القومية وغير ذلك. أنا أقف داخل المربّع وعلى أطرافه وأقوم بالاشتباك مع الأحداث التي تقع.

هنا يكمن السؤال التالي: كيف يستطيع المفكّر المسلم من جهة أن ينتقد واقعه الداخلي وينتقد نفسه ويملك جرأة ذلك ويحلّ هذه المشكلات الموجودة، وفي الوقت عينه يدافع عن هذا الواقع أمام الآخرين، أمام الغرباء، أمام الغزو الثقافي، أمام العولمة، أمام المشكلات التي تأتيه من خارج المناخ الجغرافي والاجتماعي الذي يعيشه. إنّ قدرة المفكّر المسلم على التوازن هنا هي عنصر النجاح في هذا الموضوع؛ فنحن وجدنا أشخاصًا أفرطوا في انتقاد واقعهم الداخلي حتى ذهبوا إلى الاتجاهات الغربية، وصاروا يتنكّرون لمجتمعهم الإسلامي من شدّة إفراطهم في نقد هذا الواقع، لقد

صاروا غرباء عن واقعهم، وصار طابعهم العام انتقاد الحالة الإسلامية والعربية والقومية والاجتماعية الموجودة في داخلنا، وتنزيه الآخر عن أيّ مشكل.

من جهة أُخرى، نجد بعضنا ينزّه نفسه عن أيّ معضل ويحيل مشاكلنا الداخلية على الخارج، فكل مشاكلنا عنده هي من الغرب، أما نحن فلا نعاني من أيّة مشكلة، ومن ثم لا يجب علينا إعادة النظر في أيّ شيء من قضايانا الداخلية: الفكرية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

إنّ القدرة على الجمع بين هذين الهمّين هو عنصر نجاح المفكّر المسلم، وأعتقد أن السيد محمّد باقر الصدر نجح في الجمع المذكور إلى حدّ جيد، فلم يفرط في الدفاع، ولا استغرق في النقد، بل جمع بينهما واستطاع أن يحلّ بعض المشكلات الموجودة ضمن وضعنا الداخلي، وبعض الإشكاليات الموجودة على مستوى الدفاع عن هذا الوضع.

ولكي أفهرس أبرز معالم النهضة والهوية عند السيد الشهيد الصدر على مستوى هذين الخطّين، أستطيع أن أذكر سبع خصائص فكرية تتميز بها مدرسته، قسم من هذه الخصائص يعود إلى الجواب عن سؤال النهضة، وقسم آخر منها يعود إلى الجواب عن سؤال الهوية، قسم منه نقدي، وقسم آخر منه دفاعي.

١ ـ البُعد المنهجي، إعادة تكوين منهاجيات التفكير

البُعد المنهجي أو منهاجية التفكير، قضية خضعت لتطوّر

فكري في حياة السيد الصدر، فقد اعتقد الصدر أن طريقة تفكيرنا في معالجة الأُمور تعاني من مشكلة المنهج الفكري نفسه، وعلينا أن نصلح هذه المشكلة ونسدّ هذه الثغرة، السيد الصدر لم يقل: إنّ هذا المنهج الفكري الذي نحمله خاطئ بأكمله، إلا أنه اعتقد بأنّ فيه بعض الثغرات الخاطئة وعلينا أن نسدّها، لقد اعتقد أنّ المنطق الأرسطي لا يستطيع أن يجيب عن كلّ مشاكلنا اليوم، وربما إعمال المنطق الأرسطي في الدراسات الإنسانية وفي العلوم الاجتماعية يصيب هذه العلوم نفسها ببعض المشاكل، لقد اعتقد الصدر بأن المنطق الأرسطي أو الفلسفة العقلية الصرفة غير قادرة على أن تحفظ لنا هويتنا، وغير قادرة على أن تسدّ الثغرات الموجودة في واقعنا؛ فاتجه لإعادة النظر في المنهج الفكري الذي نتّبعه، فلم يعارض المنطق الأرسطي ـ خلافًا لما يتصوّره بعضنا من أنه ضدّ المنطق الأرسطي، فهذا الكلام غير صحيح ـ وإنما اعتقد بأنّ بالإمكان أن نؤسّس مزدوجًا منطقيًا، أي أن نستفيد من أكثر من منهج منطقي في دراستنا الإسلامية، وأن لا نبقي هذه الدراسات حكرًا على منهج منطقي واحد، فإذا نوّعنا المناهج المنطقية ومناهج التفكير في الدراسات الإسلامية والدينية فإنّنا سوف نحصل على ثروة إضافية، وستتراكم أمامنا المزيد من المعلومات والمكتشفات؛ من هنا، اتجه الشهيد الصدر إلى البحث عن منطق الاستقراء وحساب الاحتمال، للكشف عن آليات جديدة لدراسة علومنا الإسلامية.

لا أريد هنا أن أبحث في كلّ نظرية من نظرياته؛ لكن

باختصار نشير إلى أنّ الصدر طبّق منطق الاحتمال ومنهم الاستقراء في علم الكلام في كتاب موجز *أُصول الدين*، وكذلك في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى كما سوف نرى، وطبّقه أيضًا في أُصول الفقه؛ في الإجماع والشهرة، كما نشّطه في علم الرجال والحديث لدى دراسته شخصية بعض الرواة الذين قيل بأنهم لا يروون ولا يرسلون إلا عن ثقة. لقد استخدم الصدر منطقًا جديدًا فقدّم لنا ثراءً جديدًا في نظامنا المعرفي، فلم يقل بأنّ المنطق الأرسطي غير قادر على أن يقدّم لنا الخيرات في المجال الفكري، لكنّه اعتقد أنّ بإمكاننا أن ننوّع مناهجنا المنطقية؛ فأيّ مشكلة في أن يكون عندنا أكثر من منهج منطقي؟! أيّ مشكلة في أن تستفيد دراستنا الإسلامية من أكثر من عُدّة معرفيّة؟! لا توجد مشكلة إطلاقًا، بل تجربة السيد الصدر أثبتت أنّ بإمكاننا خدمة الدين وسدّ الكثير من الثغرات عبر هذا التنوّع المنهجي.

إذن، أوّل قضية عالجها السيد الشهيد هي قضية المنهج الفكري وأسلوب التفكير الذي نستخدمه، كان يريد الجواب عن السؤال التالي: أيّ أسلوب يفترض أن نستخدم في حلّ مشكلاتنا الفكرية التي نعاني منها؟ هل هناك ضرورة أن نحصر أنفسنا داخل مربّع منطقي واحد أم بالإمكان أن ننفتح على مدارس منطقية جديدة، وأن نتحرّر من أن نكون محكومين لمنطق واحد، ومن ثم نثري فكرنا الديني ونثري معلوماتنا الإسلامية؟!

لقد اعتقد الصدر ما كان يراه محمّد إقبال ـ وبالمناسبة موضوع المنطق الاحتمالي الاستقرائي كان قد أشار إليه من قبلُ محمّد إقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني» طبعًا مع فارق بسيط، وهو أن إقبال كان يحمّل المنطق الأرسطي مسؤولية تخلّفنا وهذا ما لا نراه عند السيد الصدر في حدود اطّلاعي ـ من ضرورة الانفتاح على مناهج المنطق الاستقرائي.

هذا المعلم والخاصّية في فكر السيد الصدر تحاول أن تجيب عن بعض أسئلة النهضة، وفي الوقت نفسه تخدم قضايانا الدينية الداخلية.

٢ ـ الكلّيانية والتعالي النظري

الكلّيانية والنظرانية ـ إذا جاز التعبير ـ سمة أخرى من سمات التفكير عند الصدر؛ فنحن نرى أنّ الصدر انتقد في دراساته ما سمّاه بالفقه الفردي الانكماشي، فالفقيه اليوم ـ مثلاً ـ في الاتجاهات الفقهية المدرسية يعالج المسألة الجزئية الفلانية، ويعالج المسألة الجزئية الثانية، والثالثة والرابعة، فهو دائمًا محكوم بمسألة تلو مسألة، ينتقل من واحدة إلى أُخرى، كذاك الذي ينتقل من جزيرة إلى جزيرة عبر جسر، ولا ينتقل من جزيرة إلى أخرى عبر الطائرة؛ لهذا فهو لا يطلّ على المشهد من الأعلى؛ ليرى كلّ هذه الجزر والجسور، بل يتحرّك من جزيرة إلى أُخرى، فينتهي من مسألة ليبدأ بأختها، فهو ينظر وهو على الأرض، وهذا

هو الفقه التجزيئي الفردي الذي عبّر عنه السيد الصدر بالفقه الانكماشي.

لقد لاحظ الصدر أنّ الأمة الإسلامية في زمنه ليست بحاجة - فقط - إلى حلّ القضايا الجزئية التفصيلية، بل بحاجة أيضًا إلى تكوين نظريات، أي يجب أن يتحوّل عقلُنا من عقل تجزيئي يلاحظ القضايا الفكرية التفصيلية إلى عقل متعالٍ مشرف من الأعلى، كما يقول جلال الدين الرومي في شعره:

عندما تجد همًّا احتضنه بعشق

وانظر من أعلى الربوة إلى دمشق

(المثنوي، الكتاب الثالث، البيت: ٣٧٥٥)

أي لا تنظر إلى دمشق وأنت على بابها، فربما لا تجد شيئًا يعجبك، وربما لا يكون المنظر خلابًا، لكن اصعد إلى التلّ وإلى الربوة وانظر إلى دمشق منها فستجدها مدينةً جميلة.

أراد السيد الشهيد أن يخرجنا والفكر الإسلامي من مأزق التجزيئية، من مأزق التنقّل من مفردة إلى مفردة، وعدم القدرة على إيجاد حلول كبرى، والعجز عن ابتكار نظريات عظمى قادرة على النهوض بالمجتمع وتحريكه، فقد تكون هناك جزيئيات صغيرة يمكن حلّها، لكننا لا نستطيع أن ننظم حزمة الآلاف من هذه الجزيئيات الصغيرة التي تتحرك ضمن هذا المربع أو تلك الدائرة، لهذا نكون بحاجة للانتقال بالعقل المسلم من مرحلة التفكير التجزيئي الفردي الصغير - وهي مرحلة مشكورة

وضرورية كما يقول السيد الشهيد، ولا غنى عنها بوصفها مرحلةً أولى - إلى مرحلة العقل المشرف المتعالي على كلّ التفاصيل الجزئية الصغيرة، ليكوّن منها صورةً ورسمًا كاملاً، أي من مرحلة لملمة أجزاء الفسيفساء إلى مرحلة تكوين الصورة من خلالها.

هذا هو الذي دفع السيد الصدر إلى أن يفكّر بالفقه المجتمعي وبفقه النظرية، لقد لاحظ أنني ربما أبقى أدرس كتاب *المكاسب* وأبحاثه عشر سنوات أو عشرين سنة، وأدرّسها وأبحثها وأجتهد فيها، لكن مع ذلك قد لا أقدر على أن أقدّم فقه نظرية اقتصادية؛ لأن القضية ليست فقط في أن تجتهد في الجزئيات، وإنما أن تقدر بعد اجتهادك فيها على أن تكوّن صورة أكبر شاملة؛ فالفقيه المسلم والمفكّر المسلم لم تعد مشكلته مشكلة أفراد، وإنما مشكلة المجتمع بأكمله، صارت مشكلته مشكلة الأمة بأكملها، فيجب أن نفكّر على مستوى حلّ مشكلة أمّة وليس على مستوى حلّ مشكلة أفراد، هذا التفكير على مستوى حلّ مشكلة أمة يستدعي الانتقال بالعقل من المرحلة الفردية التجزيئية الصغيرة إلى المرحلة الشاملة النظرية الكلية الكبيرة، وهذا بالضبط ما فعله السيد الشهيد؛ فكأنه شعر بأنّ مشكلتنا في أننا نبقى في هذا الجزيء الصغير المنتقل من باب فقهي إلى باب فقهي، دون أن نستطيع أن نبلور رؤية كلّية للحياة. وهذه نقطة أساسية أراد السيد الشهيد من خلالها أن ينقذ هذا العقل المسلم من الغرق في التفاصيل، لكي يجعله في رحابة الرؤى الكلية

والقواعد العامّة، لكي تستطيع علومنا الإسلامية أن تدير المجتمع كما تدير الفرد، أن تدير الأمة كما تدير الآحاد، فبعقلية إدارة فرد لا يمكن إدارة أمة، ولا دولة.

هذا معلم آخر أيضًا أساسيّ ومهمّ للغاية سعى له السيد الصدر لتكوين فقه مجتمعي، وفقه دولة، وفقه اقتصادي، وفقه سياسي، لا لتكوين فقه فردي قد يكون له علاقة هنا بالسياسة أو علاقة هناك بالاقتصاد أو علاقة ثالثة له بالحياة الاجتماعية.

٣ ـ الانتقال من الفرضيّة إلى العملانية

نقصد من العملانيّة أو البعد العملي، الانتقال بالفكر الديني من الدراسات النظرية البحتة إلى الدراسات العملية، وهذه أيضًا نقطة أساسية؛ لأن أكثر المفكرين النهضويين منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا يعيبون على فكرنا الإسلامي ببعض مفاصله خلال عصور الانحطاط، أنها أغرقت في التجريد والاستغراق خارج نطاق الواقع، كأن المفكّر المسلم يجلس في زاوية من زوايا بيته يفترض مشكلةً ربما لا وجود لها في الخارج، ثم يبدأ بحلّها، فلا المشكلة لها وجود ولا الحلّ نحن بحاجة إليه الآن.

سأعطي مثالاً واقعيًّا معاصرًا، توجد بعض الدراسات الفقهية المتعلّقة بالبنك يسعى كتّابها لدراسة معاملة بنكية ومصرفية ما، فيفرضون لها ــ مثلاً ــ سبع فرضيات ويبدؤون بحلّ هذه الفرضيات، ولو أتعبوا أنفسهم قليلاً وذهبوا إلى البنك لما وجدوا

سوى فرضية واحدة اليوم من هذه الفرضيات المخترعة؛ فلماذا أشغل نفسي بسبع فرضيات لا وجود لها وأصرف جهدًا من طاقتي ومن إمكاناتي لحلّ مشكلة لا وجود لها في واقع المسلمين اليوم؟ فلو وجدت غدًا فسيأتي جيل الفقهاء الذي يعالجها.

وهذا ما يشير إليه الإمام الخميني في بعض أبحاثه، حينما ينتقد الفكرة الشائعة التي تقول بأننا نبحث بعض المسائل في أُصول الفقه لشحذ الذهن، أفهل نضبت المشكلات العملية التي نشحذ بها ذهننا حتى نذهب إلى مشكلات لا وجود لها؟!

هنا نجد المفكّر المسلم ـ مثل السيد الشهيد محمّد باقر الصدر يريد أن ينتقل بالعقل المسلم من هذه المرحلة التجريدية التي يحلّق فيها فوق الأرض ليحلّ فيها مشكلات لا وجود لها، إلى مرحلة عملية. فماذا فعل؟

حتى أُصول الدين، حتى علم الكلام، انظروا كيف كان السيد الشهيد يسعى لإدخاله في التركيب الاجتماعي، وفي الحياة الاجتماعية، فالنظرة الاجتماعية إلى أُصول الدين التي كتبها السيد الصدر، والنظرة الاجتماعية إلى العبادات التي تحدّث عنها، تمثل توظيفًا لهذا الفكر الإسلامي في حياتنا العملية، وعدم البقاء والغرور بمجرد التفوّق الفكري والتحليلي، وإنما النزول إلى أرض الواقع لحلّ المشكلات.

من هذه النقطة بالذات، ننظر إلى السيد الشهيد في اهتمامه بالأولويات، وهو ما كان تحدّث عنه الشهيد مرتضى مطهري

أيضًا، نحن نعاني من خلل في ميزان تنظيم الأولويات، لقد مثّل المطهري لذلك بمثال حين قال بأن هناك من يذهب لزيارة الإمام الحسين(ع)، وعلى الحدود العراقية الإيرانية يكذب لكي يُفسح له في المجال لعبور الحدود، إنه يرتكب الحرام لأجل المستحب، هنا يختلّ ميزان الأولويات، وهو يشبه إلى حدّ كبير ميزان الحرارة الذي إذا اختلّ انهارت كلّ المعايير في الجسم، هنا يصبح الإنسان مستعدًا لشغل نفسه سنين في موضوعات لا قيمة لها ويترك موضوعات ضرورية جدًا لاعتبارات وهمية كاسدة.

لهذا جاء المفكّر المسلم ـ مثل السيد الصدر ـ وأخذ أصول الدين وعلم الكلام، ذلك العلم الذي أخذ طابعه التجريدي النظري، وأراد أن يقحمه في حياتنا الاجتماعية. انظروا كيف حاول أن يدخله في حياتنا الميدانية في مقدّمة كتاب فلسفتنا حين قال بأن الرؤيا الكونية بالنسبة إلينا هي معيار نستطيع من خلاله أن نغيّر واقع حياتنا الاجتماعي والسياسي والشخصي..

هذا النوع من التفكير يمنحنا قدرة تنشيط القضايا الأكثر تجريديةً في حياتنا العملية، إنه الانتقال بالعلوم التجريدية لتتحوّل إلى علوم واقعية عملية تستطيع تغيير حال المسلمين نحو الأفضل.

٤ ـ الواقعيّة أو الرحلة من الواقع إلى النص إلى الواقع

المثال الأبرز الذي أريد أن استخدمه هنا في البعد الواقعي هو التفسير الموضوعي، السيد محمّد باقر الصدر أراد أن يغيّر طريقة

رجوعنا إلى النصوص، وأن يلفت نظرنا إلى آلية جديدة، فنحن ندرس في العلوم الإسلامية حينما نصل إلى مرحلة معينة بابًا فقهيًا، وننتقي مسألة فقهية نبحث فيها، وهنا أجد أنّ أمامي نصوصًا قرآنية وحديثية، وأجد أمامي كلمات العلماء والفقهاء عبر الزمن، أجد أمامي كلّ هذا الزخم من التراث، ثم أبدأ بتحليله، فأنا من البداية إلى النهاية مع هذه النصوص، وإذا أردنا رسمًا لهذا المشهد فنحن نرسم سهمًا دائريًا من النص إلى النص.

يقول السيد الصدر بأنني لا أذهب إلى النص، ولماذا أذهب إليه؟! فلنذهب إلى الواقع أوّلاً، أي إلى واقع الحياة الإنسانية، وإلى هموم الإنسان المسلم المعاصر ومشكلاته وأزماته وعناصر تخلّفه وسبب تردّي حاله، ثم آخذ الأسئلة من هذا الوضع القائم، فأنا في البداية واقعيٌّ، أي أنطلق من الواقع وأبدأ به، وآخذ الأسئلة والهموم منه، ثم أذهب إلى النص، وأجثو على ركبتي أمام الكتاب والسنّة لأقول لهما: ما الذي يمكنني أن أستفيده منكما في حلّ المشكلات الواقعية؟ أنا أبدأ من الواقع إلى النص، ثم بعد أن أحصل على الجواب من النصّ، أبدأ رحلة العودة من النص إلى الواقع، فأحمل ما أخذته من هذا النص المقدّس، وأذهب إلى الواقع لإصلاحه وفق هذه القيم الدينية التي أعطاني إياها النص.

إذن، حركتي من الواقع إلى النص، ثم من النص إلى الواقع، وليست حركتي من النص إلى النص، وكأن الواقع لا قيمة له عندي، مثل ما يسمّى بفقه الأرأيتيين، وهي جماعة ظهرت في

القرن الثاني الهجري أطلق عليها في حينه الأرأيتيون، وفي بعض الروايات عن أهل البيت ما يشير إليهم، وقد سمّوا بالأرأيتيين لأنهم كانوا عندما يطرحون مسألةً فقهية يقولون: أرأيت لو كان كذا وكذا فما هو الحكم؟ فكانوا يستخدمون هذا التعبير فسمّوا به.

أنا أريد أن أنتقل من «أرأيت لو كان كذا» إلى «أرأيت كيف حصل هذا، فأعطني الجواب». هذا هو المشروع في التفسير الموضوعي وغيره من مشاريع الصدر، أي النظر إلى مشكلات واقعنا المعاصر بكل تفاصيله، ثم أخذ هذه المشكلات وحملها لتوجيهها أسئلةً إلى النصّ لأخذ الجواب منه، ثم العودة في رحلة الرجعة إلى الواقع الذي يصلحه في ضوء النص.

إذن، هذا هو البعد الواقعي في فكر السيد الصدر، أي الانطلاق من الواقع إلى النص والعودة من النص إلى الواقع، فالواقع تكرّر مرتين في البداية وفي النهاية، هو البداية وهو النهاية، لكنه ليس الحكم، بل الحكم هو النص في القضايا الدينية.

إننا نعتقد أن فكرة التفسير الموضوعي بهذه الطريقة تجمع ـ من جهة أولى ـ بين الكلّية النظرانية، أي الخاصية الثانية؛ لأنها تريد أن تعطي رؤية كلّية لموضوع قرآني ما، وبين الواقعية؛ لأن الموضوعية في كلمة «التفسير الموضوعي» كما يستوحى من بعض تعابير السيد الشهيد يقصد منها ما يقابل الذاتية، أي الواقع الخارجي، بل هو يصرّح أنني أبدأ من الواقع، ثم آخذ أسئلته إلى النص القرآني.

وعليه، أراد السيد الشهيد أن يحلّ مشكلة «لا واقعية الفكر» التي ابتلى بها المفكّر المسلم عدّة قرون من الزمن، لينقله إلى مرحلة الواقعية ليستطيع من خلال ذلك إصلاح حال هذه الأمة ورفع مستواها الفكري والاجتماعي والإيماني.

٥ ـ الإحيائية وإعادة استحضار الغائب

الإحيائية خاصيةٌ يشترك فيها كثير من المفكّرين غير السيد الشهيد الصدر منذ القرن التاسع عشر، حيث يعتقد الكثير من العلماء النهضويين الكبار أن واحدة من أهم مشاكل هذه الأمة أن بعض فرائضها وقيمها غائبة عن حياتها؛ لذلك أطلقوا ما يسمّى بالفرائض الغائبة، أي تلك الفرائض والقيم التي غفل عنها المسلمون، لقد شعر هؤلاء المفكّرون النهضويون بأن هناك قيمًا وأفكارًا ونظريات في داخل هذا التراث الإسلامي مشكلة المشاكل فيها أنها ميتة، فأتوا لإحيائها.

إذا قرأنا تجربة السيد الصدر سنجد عنصر الإحياء واضحًا، مثل إحياء فكرة الدولة الإسلامية، وإحياء مفاهيم تطبيق الشريعة، وإحياء مقولة الإسلام يقود الحياة، وإحياء مفهوم الجهاد، وإحياء مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء مفاهيم العمل النسوي، إلى غيرها مما كتب فيه السيد الشهيد أو تحدّث عنه، إنها سلسلة من المفاهيم النهضوية الكبرى القادرة على تغيير واقعنا وسدّ الكثير من الثغرات، وقد أسهم الصدر في

إحياء العديد من هذه المفاهيم واشتغل عليها وقدّم فيها الكثير، وكلّكم يعرف ماذا قدّم في الفقه السياسي، وفي الفقه الاجتماعي وغير ذلك.

٦ ـ الدفاعية أو مشروع الممانعة الحضاريّة

في الدفاعيّة لا يفرط المفكّر المسلم المتوازن في نقد الداخل، تمامًا كما لا يفرط في نقد الخارج ويعفي نفسه من المسؤولية. السيد الشهيد رغم كلّ هذه المحاولات النقدية لمناهج التفكير عندنا؛ لتجريدتنا وعدم واقعيتنا، لعدم كوننا عمليين، لابتعادنا عن فقه النظرية والفكر النظري عمومًا.. رغم ذلك كلّه كان دفاعيًا من بداية حياته إلى نهايتها، من μفلسفتاν في دفاعه عن الفكر الإسلامي في مقابل الاتجاهات الماركسية والمادية الديالكتيكية والتاريخية، إلى μالأسس المنطقية للاستقراءν الذي جمع فيه بين نقد مناهجنا المنطقية وبين الإتيان بمناهج منطقية جديدة قادرة أيضًا على الدفاع عن قيمنا ومفاهيمنا، ولذلك حينما نصل إلى الصفحتين الأخيرتين من كتاب «الأسس المنطقية للاستقراء» نعرف أن كلّ هذا الجهد المنطقي الضخم أريد له أن يخدم الدفاع عن قضية «الله سبحانه وتعالى»، عن قضية الوجود الإلهي، وعن قضية وجود ما فوق المادّة وما فوق الطبيعة، في مقابل اتجاهات المادية التي كانت تغزو العالم الإسلامي في تلك الفترة.

هنا يظهر إحساس المفكّر المسلم بأنه مسؤول عن الدفاع عن أمّته وقضاياه وفكره ودينه، وهذه من العناصر الأساسية التي امتاز بها السيد الشهيد الصدر، لا أقول: امتاز بمعنى أن الآخرين لم يمتازوا، أنا لا أشرح امتيازات منحصرة بفرد كما يقولون، ولكن امتيازات أستطيع أن أقول: اختلفت شدّة وضعفاً بين المفكّرين النهضويين.

إذن، جمع السيد الصدر بين الدفاع عن قضايا الأمّة والفكر الديني وبين نقد بعض المعالم الخاطئة والكشف عن بعض الثغرات السلبية في الفكر الديني، وهذا ما يشكّل معلم التوازن في الجواب عن سؤالي: النهضة والهوية معًا.

٧ ـ النقديّة وهواجس تفتيت التكلّس الداخلي

هناك علماء معروفون بأنهم نقّادون، لا أريد أن أعطي أمثلة حتى لا يصير النقاش فيها، بعضهم يقول: الشيخ محمّد جواد مغنية رجل مسكون بهاجس النقد، فأوّل كتاب ألّفه كان نقد الواقع الاجتماعي في جبل عامل، وهذا يعني تبلور حسّه النقدي في مرحلة مبكرة، وكما هناك مفكرون دائمًا نجد النقد في كتبهم، كذلك هناك آخرون يتجنبون هذا النقد الداخلي، فمثلاً بعض الذين يكتبون في التراجم إذا وصلوا إلى عيب لشخص ما يريدون ترجمته يحاولون أن يقولوا: لا نعمل مشكلة مع فلان، أو لماذا أذكر هذا؟ ربما فيه إشكال شرعي!!

السيد الصدر في اللحظة التي كان فيها في قمّة الدفاعية - كما أشرنا - كان أيضًا ينتقد واقعنا، فتجربته يعرفها الجميع أكثر منّي، تجربته في نقد واقعنا الحوزوي، وفي نقد مناهج التعليم، وتجربته في نقد بعض الظواهر الاجتماعية الموجودة في حياتنا. هذه العقلية النقدية التي كان يحملها إزاء بعض الظواهر تتجلّى في أكثر من كتاب ومحاولة، ولكنه يمتاز عن الكثير بأن هذا النقد الذي كان يمارسه كان هادئًا، وكان يحتاج إلى نفس طويل؛ لأن طريقة النقد التي امتاز بها تعطينا إيحاءً واضحًا بأنه كان مستعدًّا لنفس طويل لكي يحقّق الغاية من هذا النقد، في مقابل بعض العلماء الذين ينتقدون بطريقة أشدّ وأصرح، ويعتقدون بأننا بحاجة إلى أن نقفز لكي نصل إلى نتيجة النقد، أما السيد الشهيد فظروفه التاريخية التي كان يعيشها في العلاقة مع النظام الحاكم في العراق في تلك الفترة، والأزمة التي كانت تعيشها الأمة المؤمنة والحالة الإسلامية بشكل عام في مواجهة المدّ الأحمر.. ربما هذا كلّه دفعه إلى أن يختار المراحلية البعيدة الطويلة النفس في معالجة النقد الداخلي لقضايانا، سواء الحوزوية الداخلية أو الاجتماعية الخاصّة.

أين نحن من مشروع الصدر؟! هل توقفت العقلانية الدينية المحدثة؟!

أعتقد أن هذه السمات السبع الموجودة في فكر السيد الشهيد

محمّد باقر الصدر: المنهجية، والكلّيانيّة، والعملانية، والواقعية، والدفاعية، والإحيائية، والنقدية.. لو قرأناها بإمعان فسوف نتمكّن من الإجابة عن هذا السؤال: هل حقًا ساهم السيد الصدر في تقديم جواب الفكر الديني عن سؤالي: النهضة والهوية أم لم يقدر على ذلك؟

أعتقد أن الجواب صار أكثر وضوحًا في ذهننا، فقد قدّم مساهمات كبيرة في هذا المجال، لكن ليس المهم أن نتعرّف عليها بقدر ما المهم أن نكملها. ويحلو لي أن آخذ في نهاية هذه الكلمة هذا التشبيه أو المثال الذي ذكره بعض المفكّرين لنتعلّم منه، وقد كرّرته عدة مرات، يقول المثال: إن هناك أبًا له أولاد وعنده مصنع، وهذا المصنع فيه عمّال، يقوم بإعطائهم مبلغًا من الأجر الشهري، في السنة الأولى زاد لهم عشرة في المائة، وفي السنة الثانية زاد عشرةً أُخرى، وفي الثالثة زاد عشرةً ثالثة على أجورهم، ثم توفي الوالد بعد عشر سنوات وورث الأولاد المصنع، وانقسموا إلى قسمين: فريق نصيّ أو حرفي، وآخر منهجي موضوعي.

فالفريق الأوّل يقول: والدنا أعطى قبل وفاته مبلغًا معيّنًا من الأجر، إذًا فنحن نعطي عين هذا المبلغ إلى الأبد، فهذه هي سياستنا إلى يوم الدين؛ لأننا نتعبّد بما كان يفعله والدنا، ولا نعرف هل كان سيزيد عن السنة الماضية في السنين اللاحقة أو لا؟

أما الفريق الثاني فيقول: لا، ليس هذا اتّباعًا لسيرة والدنا وسنّته، وإنما المطلوب أن نأخذ من مسيرة تجربته مع هؤلاء العمال

وظيفتَنا وحركتنا، فما هي المسيرة؟ كان يزيد عشرةً في المائة كلّ عام، فنستمر في مشروعه.

هذا ما نحتاجه اليوم في تعاملنا مع مفكّرين كبار مثل السيد محمّد باقر الصدر الذي قدّم ما احتاجت الأمة إلى تقديمه قدر مُكنته وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين، أما الجيل الثاني والثالث، أمّا نحن اليوم، جيل التسعينيات والألفين، وجيل الألفين وعشرة، وجيل الألفين وعشرين... هذه الأجيال القادمة هل تريد أن تقف وتشتغل ـ فقط ـ بالشرح والتعليق، أم تريد أن تستمرّ وتواصل المسيرة؟! إذا وقفت فقد فعلت عكس ما كان يريده السيد الشهيد الصدر؛ لأنه لو كان يفكّر بطريقة الوقوف لما تقدّم على الذين سبقوه، مما يريده منّا الصدر اليوم هو أن نستمرّ بأخذ طريقته في العمل، وليس نتائج عمله التي توصّل إليها فقط. هذه الطريقة إذا أخذناها وهذه الشخصية إذا تمثلناها وتماهينا معها واستمرّينا في مشروعها بإمكاننا أن نقدّم المزيد المزيد، فكلّ جيل يقدّم ما يجب عليه أن يقدّم، وينتقد بالنقد الموضوعي البنّاء الجيل السابق ولا يقدّسه، وهكذا يكون حوار الأجيال وتقدّمها جيلاً بعد جيل، إلى أن ترجع هذه الأمة الإسلامية إلى حالها الطبيعي، وإلى مواقع عزتها وكرامتها، إن شاء الله تعالى.

حافظ الشيرازي
في رؤية سيد قطب

• سُمي حافظًا لأنه حفظ القرآن • إقبال المصريين على حافظ يحدوه شوق دفين إلى تراث الشرق • سيد قطب: حافظ ينقلك من الأيام الثقيلة إلى جوّ هادئ طليق • الشعر العربي يعاني أزمة ويحتاج إلى زاد حافظ • يجب أن يعبّر الشعر عن لحظات الإشراق والتهويم • قارئ أغاني شيراز يستروح فيها عطر الشرق • حافظ والخيام وطاغور فيهم الروح الشرقي العميق • حافظ والخيام كلاهما يستجليان السرّ الأعظم للكون مع فارق في طريقتهما.

الخواجة شمس الدين محمد حافظ الشيرازي، أشهر شعراء الفارسية في القرن الثامن الهجري، لقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار. ولد في شيراز من مدن محافظة فارس الحالية وعاش وتوفي فيها، ومقبرته معروفة تسمى بالحافظية. وسمي "حافظ" لأنه حفظ القرآن الكريم. وديوانه متداول في كل بيت إيراني، وترجم إلى لغات عديدة، وترجمه إلى العربية نظما ونثرًا الدكتور ابراهيم أمين الشواربي مع مقدمة للدكتور طه حسين.

وقفة عند حافظ

عند صدور *أغاني شيراز* للدكتور ابراهيم أمين الشواربي

وهو يضم ترجمة منظومة ومنثورة لأشعار حافظ الشيرازي سارع سيد قطب لاقتناء الكتاب والتعليق عليه، وأظن ظنًا أن إقبال الأدباء والنقاد المصريين على ترجمة ديوان حافظ ينطلق من شوق دفين لديهم إلى تراث الشرق لخصلتهم الشرقية العميقة، ولسأمهم من كثرة ماطالعوه من ترجمات الأدب الأوربي التي لا تنسجم في كثير من نفحاتها مع روح الشرقيين.

الدكتور طه حسين في مقدمته للترجمة يشير إلى ذلك، وهكذا الشاعر محمد مهدي الجواهري يصرّح بذلك لدى ترجمته بعض أشعار حافظ الشيرازي.

وسيد يتحدث عن مشاعره مع أغاني حافظ فيقول:

«عشت أيامًا جميلة مع "حافظ" أتاحها لي ولقراء العربية الدكتور إبراهيم أمين. لست أدري كيف أشكره، فهذه الساعات الحلوة التي أتاحها لي لا تقدَّر بثمن تكافئ من ينقلك من الأيام الثقيلة الصاخبة الكئيبة، إلى جو طليق هادئ رفاف تشيع فيه الأنداء والأضواء، وترف فيه الأنسام والأصداء، ويستقبلك بالطلاقة والبشر والإيناس!

لقد أخلدت ـ مع حافظ ـ إلى الغناء العذب بروح صادقة، لاتكدرها شوائب الحياة، ولا هموم العيش، ولا أحقاد الناس، ولا تفسدها كذلك غواشي القلق، ولا هموم الفكر، ولا الجدل الذهني العقيم.

كأس من الخمر، ووجه جميل، ورفاق مسعدون، وطبيعة

باسمة. وعلى الدنيا السلام...!

«أي شيء أجمل من رفقة الأحباب، والتمتع باللهو والرياض والربيع الجميل؟

«فأين الساقي؟ قل له: ما هذا الانتظار الطويل؟

"واعتبر ما يتهيأ لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنيمة كبيرة.

«فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور».

ويشير «سيد» إلى أغاني شيراز ومافيها من عطاء للعالم العربي، ويركز على النقاط التالية:

- زيادة ثروة الأدب العربي، وإثارة ألوان جديدة من التفكير وفنون من الشعور الخصب.

- زيادة رصيد الغناء في الشعر العربي.

- استرواح عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه، وغيبيته وتصوفه.

ثروة وألوان جديدة

يستشهد سيد بفقرة من مقدمة الدكتور طه حسين حيث يقول:

«... وهذه طرفة أخرى نفيسة رائعة، يسعدني أن أطرف بها قراء العربية! لأنها ستمتعهم من جهة، ولأنها ستزيد ثروة الأدب العربي من جهة أخرى، ولأنها بعد ذلك ستثير في نفوس الكثيرين

منهم ألوانا من التفكير المنتج، وفنونًا من الشعور الخصب، ولعلها أن تفتح لبعض الشباب أبوابًا في الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل».

ويعلق على ذلك بقوله:

«وهذه نبوءة تصح من غير شك لو خلي بين الأدباء ـ الشبان خاصة ـ وهذه المجموعة من شعر حافظ. فإن قلة النسخ المطبوعة منها، وارتفاع ثمنها بالقياس إلى مقدرة هؤلاء الشبان، قد يجعلان الانتفاع بها محدودًا في الوقت الذي يجب أن تكون في متناول الأيدي جميعًا».

حافظ والغناء في الشعر العربي

يرى سيد أن *أغاني شيراز* ستعمل على تغذية الشعر العربي بالروح الغنائية بعدما غرق الشعر العربي الحديث في موجة فكرية، يقول:

«إن هذه الأغاني تجيء في وقتها المناسب ـ والشعر العربي يعاني أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزاد ـ فلقد آن للشعر أن يكون غناء بحتًا، بعدما طوّح بنفسه في مجالات لم تَعُد له، أو لم يَعُد يبدو فيها بأجمل ألوانه.. طوح بنفسه في مجال الفلسفة، وفي لجج الفكر، كما أخذ يطوّح بنفسه كذلك في مجال القصة والمسرحية وما إليها، بعد أن عادت روح العصر لا تهش للقصة، ولا للمسرحية الشعرية».

ويرى أن سبب طغيان الموجة الفكرية في الشعر العربي المعاصر يعود إلى اهتمام الشعراء المعاصرين بمواجهة موجة الأسلوب اللفظي أو الإيقاعي التي اهتمت بالمحسنات البديعية الجوفاء والإيقاع الموسيقي الذي لا يتسم بالحياة ولا بالجدية. يقول:

«والموجة الفكرية الفلسفية في الشعر العربي الحديث، كانت ضرورة في وقت من الأوقات، لأنها كانت رد فعل طبيعي لموجة أخرى سبقتها. موجة الأسلوب اللفظي، أو الأسلوب الإيقاعي. فكانت مهمة الموجة الجديدة أن تدخل القصد والمعنى إلى الأدب، وأن تمد الشعر بروافد نفسية وفكرية حية، لتنقذه من ذلك العبث بالمحسنات البديعية الجوفاء، ومن الإيقاع الموسيقي الذي لا يحمل وراءه حياة ولا جدًا . وقد استطاعت أن تحيي الشعر العربي وتجدد مجده، وتزيد عليه متاعًا قيمًا من صور الحالات النفسية الصادقة. عبرت عنها بدقة بالغة فأوجدت في الشعر العربي لونًا جديدًا حقًا. ولكنها وقفت بالشعر الحديث حيث لا يجوز الوقوف، قصت من أجنحته المرفرفة. وغضت من غنائيته المنغمة، وأقلت فيه من السبحات والومضات، وجعلت عنصر الوعي الفكري بارزًا فيه».

وماهي مهمة الشعر إذن؟ يقول سيد إن الشعر:

«يجب أن يكون تعبيرًا عن لحظات الإشراق والتهويم، ولحظات التوهج والانطلاق في النفس الإنسانية، تلك اللحظات

التي يستحيل فيها الشاعر روحًا أكثر ما تكون تجردًا، أو حسًا أشد مايكون توهجًا. تلك اللحظات التي ينطلق فيها التعبير كأنما يكون نفسه ـ وإن كان الوعي يعمل فيه ـ وهي لحظات يعرف مثلها كل شاعر ملهم في حياته الطويلة. وما عداها من اللحظات والحالات فغير جدير بالشعر في اعتقادي، أو أنه من الدرجة الثانية أو الثالثة في حياة الشاعر الفنية».

وعن دور ترجمة شعر حافظ في مواجهة الموجة الفكرية في الشعر العربي المعاصر يقول:

«*وأغاني شيراز* تأتي في حينها المناسب لتساعد على انحسار الموجة الفكرية عن الشعر الحديث. وقد لا تلبي هذه الأغاني كل مطالب الشعر في هذه الفترة، لأن الحس يغلب عليها والأشواق الروحية الخالصة تقل فيها ـ على الرغم من طابعها الصوفي ـ ولكنها على كل حال تزيد من رصيد الغناء في الشعر العربي زيادة لها قيمتها. وحسبها أنها تجعل الشعر غناء خالصًا لا تبهظه أثقال الفلسفة إلا حيث تعرض في سرعة وتختفي سريعًا، ولا تبرده ثلوج الفكر ـ وإن كال فيها على ماسيجيء ـ لعب بالألفاظ والصور والمعاني، ولكنه لعب لطيف حلو لا يغض من حلاوة الغناء الطليق».

استرواح عطر الشرق

بعد انتشار موجة التقليد للآداب الغربية في الأدب العربي

الحديث، ظهر لدى كثير من دعاة "الاصالة" حنين إلى الروح الشرقية، ووجد المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزّام ضالته في الأدب الفارسي فاهتمّ به، وألفت الأنظار إليه، وتوالت الترجمات العربية للشعراء الإيرانيين تظهر للقارئ العربي، ويتناولها الادباء والمتأدبون بشوق كبير يدل على وحدة الجذور بين الأدبين العربي والفارسي، ووحدة الروح بين العرب والإيرانيين. وفي هذا الشأن يقول "سيد" عن أغاني شيراز:

«ثم إن لها عندي مزية أخرى:

فقارئ هذه الأغاني يستروح فيها عطر الشرق البعيد، وبساطته ومرحه، وغيبيته وتصوفه، ونحن اليوم أحوج مانكون إلى استرواح هذا كله، حين تغمرنا موجة العقلية الغربية، وهي موجة قوية طاغية، لانجد لها في حاضرنا الروحي كفاء.

وفي أغاني حافظ، كما في رباعيات الخيام الفارسيين، وكذلك في أشعار تاجور الهندي ـ على بعدما بينهم في الإحساس والاتجاه ـ ذلك الروح الشرقي العميق، الذي يستطيع اليوم أن يسعفنا، ويحفظ تراثنا الشعوري في وجه التيار.

وهذا هو ما أعنيه باسترواح الشرق البعيد؛ فليس نموذجًا واحدًا ما أريد، ولكنها نماذج شتى، تجمعها سمات أصيلة، تعبر عن الموروث والمذخور في نفس الشرق من رصيد».

خصائص شعر حافظ

يستعرض سيد بعض خصائص شعر حافظ ونلخصها فيما يلي:

١ - تكرار دون ملل

في شعر حافظ أو غزلياته كما تسمى بالفارسية ظاهرة التكرار وظاهرة اللعب بالنكات اللفظية والتعبيرية التي تزحم بالديوان. وهذا التكرار مشهود في شعر البديعيين في اللغة العربية، غير أنه هنا مملّ يبعث على السأم وهناك في شعر حافظ «لايدعك تسأم أو تملّ وهو يكرر ويكرر إلى غير نهاية أوصاف طرة الحبيب التي هي تارة شباك لصيد المحبين، أو سلسلة يأوي اليها العشاق راضين، وتارة نافجة مسك يفوح منها الطيب، أو صولجان من العنبر يسحبه الحبيب على جبينه المشرق في وجهه الجميل ... إلى آخر هذا الحشد المكرور من التشبيهات».

٢ - الجوّ الموحّد

حافظ في رأي "سيد" درويش "يخطرف" في حديثه، ويلقي كلمة من هنا وكلمة من هناك حتى ليخيل إليك في بعض الأحيان أنه لا توجد في "الظاهر" رابطة بين الإشارات والإيماءات . غير أنها تربطها في "الباطن" رؤى درويش متصوف، تطالعه من وراء "الغيب" فيرمز لها ولا يبين.

أسلوب حافظ إذن غير مفكك «فوراء هذه الإشارات والإيماءات جوّ موحّد تعيش فيه الغزلية الواحدة، بل تعيش فيه الغزليات جميعًا، ذلك هو جوّ "الشهود" في اصطلاح الصوفية».

ويذكر "سيد" أمثلة من شعر حافظ، ويرى فيها «أنها جميعًا أصداء لطيفة لانفعالات شاردة، تتوالى على حسّ مرهف، في "حضرة" الحبيب، ويربطها جميعا ذلك الرباط اللطيف الدقيق (أي رباط جوّ الشهود)».

٣ - الراحة اللذيذة السالية

يرى سيد أن هناك تشابها بين شعر حافظ والخيام فكلاهما يستجليان السرّ الأعظم للكون، هذا السرّ الذي أوصدت دونه الأبواب، غير أن الخيام يدقّها دقّا عنيفًا متواصلا، حتى كلّت يداه وأدركه الإعياء وغشاه الملال، فجلس يغرق أشجانه في كأس من الشراب، ويتسلى لحظة ريثما يعود الدق على الأبواب من جديد، لكن حافظًا يواجه الموقف في وداعة واستبشار، لا ليغرق همّا ولا ليسكت حيرة، بل لينتشي ويثمل ويتملّى محاسن الحبيب . لقد يئس هو الآخر من استجلاء سرّ الغيب، ولكن هذا لا يعنيه، يطلب كأسًا ليرى فيه وجه الحبيب، فربما تفتحت له فيها أسرار الغيوب:

«الآن ونسيم الجنة يهب من البستان

إليّ بالخمرة المفرحة وبالحوراء التي قامتها كحور الجنان

«ولم لا يفخر السائل المسكين بأنه أضحى اليوم سلطان الزمان

وقد عقد له السحاب خيامه، وبسطت له الحقول مائدة الخوان؟

«وهذا الربيع الجميل يحكي لي حكايته الجميلة

فيقول: ليس عاقلاً من يفضل النسيئة ويترك النقد.

«فعمّر قلبك بالشراب، فلا همّ لهذه الدنيا الخربة

إلا أن تحيل ترابنا إلى لبنات وآجرّات.. الخ".

خصائص المدح والهجاء
عند أبي فراس الحمداني

• علاقة أبي فراس بالآخر في مجتمعه علاقة إصلاح لا طعن • ينفي أبو فراس عن نفسه أن يكون شاعرًا كي لا يُحشر في زمرة المداحين • يتميز مدح أبي فراس لنفسه (الفخر) بالتأكيد على الطهر والعفاف • الشاعر يسوؤه ما يرى من مظاهر الدجل والنفاق • في شعر أبي فراس أروع صور النقد الذاتي • في شعر أبي فراس لوعة تجاه ما نزل بَحمَلة الرسالة من آل علي • أبو فراس من نوادر الشعراء الذين عزفوا على قيثارة قلوبهم.

نرى في هجاء أبي فراس الحمداني (٣٢٠ -٣٥٧) نوعًا حضاريًا من الهجاء ينبو عن ذكر المثالب والأعراض، ويعبر عن نوع من الألم والمضاضة تجاه إساءات الآخرين، وكأنه لا يريد أن يطعن بمن يهجوه بقدر ما يريد صرفه عن غيه، وقد تكون نتف من هذا اللون من الهجاء موجودة في الشعر العربي، لكن الذي يميز أبا فراس أن هجاءه يقتصر على هذا اللون الرائع المتزن، مما يبين أن علاقته بالآخر في مجتمعه علاقة إصلاح لا طعن حتّى ولو أساء إليه يقول معلقًا على إساءة صاحبه:

صاحبٌ لما أساء أتبع الدلو الرشاء

رب داء لا أرى منه سوى الصبر الشفاء

أحمد الله عـلى مـا سرّ من أمري وساء

ويخاطب الذين ناصبوه العداوة بالقوة:

أيا قومنا لا تنشبوا الحرب بيننا

أيـا قــومنا لا تقطعوا اليد باليد

عداوة ذي القربى أشــد مضاضة

على الـمرء من وقع الحسام المهند

فياليت داني الرحم منا ومنكم

إذا لـم يقــرب بيننا لــم يبـــعّد

ولا نـرى لأبـي فـراس شـعرًا هجائيًـا قاسـيًا إلاّ مـع أعـداء أمتـه المحـاربين . ثم نـراه يهجـوهم بهـذه القسـوة وهـو يعـيش في أسـرهم، مما يبين مدى ما كان يتمتع به الرجل من إحساس بالرفعة والعـزة أمام العدو، وهو ما نحن بأمس الحاجة إليه اليوم.

ثم نراه يهجوهم بعد أن استفزه قائد الروم الدمستق إذا قال له: إنّما أنتم كتّاب ولا تعرفون الحرب . فأجابه أبو فراس.

أتزعـــم يـــا ضخـــم اللغاديـــد أننا

ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا

فــويلك من للحرب إن لم نكـــن لها

ومن ذا الذي يمسي ويضحي لها تربا

ثم راح يعدد الوقائع التي انتصر فيها الحمدانيون على الروم، وبعدها قال:

بـــأقلامنا أحجـــرت أم بسيـــوفنا

واسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا ؟

ثم يختتم القصيدة بأسلوب رائع في الهجاء إذ يقول:

رعى اللّه أوفانا إذا قال ذمة   وأنفـــذنا طعنًا، وأثبتـــنا قـــلبا
وجدت أباك العلج لما خبرته   أقلكم خيرًا وأكثركم عجبا

أسلوب خاص بالمدح:

بسبب شيوع المداحين والهجائين المتكسبين يحاول أبو فراس أن ينفي عنه أن يكون مداحًا أو هجاءً، ولكنه يقر بأنه مدح نفسه وآباءه، وأن أكثر شعره كان في هذا اللون من المدح، يقول:

الشـــعر ديـــوان العـــرب   أبـــــدًا وعنـــــوان الأدب
لم أعـــدُ فيـــه مفـــاخري   ومـــديح آبـــائي النجـــب
ومقطعـــــــات ربمـــــا   حليـــت مـــنهن الكتـــب
لا في المـــديح ولا الهجـــاء   ولا المجـــون ولا اللعـــب

ويقول:

نطقت بفضلي وامتدحتعشرتي   ومـا أنـا مـداح ولا أنـا شـاعر
وهل تجحد الشمس المنيرة ضوءها   ويستـر نـور البـدر والبدر زاهر

وهذه الأبيات تبين ما آل إليه الشعر في زمن أبي فراس، فهو ينفي عن نفسه أن يكون شاعرًا كي لا يحشر في زمرة هؤلاء الذين يقولون مالا يفعلون، ويحترفون الكلمة دون إيمان بقدسية هذه الكلمة . وينفي عنه أن يكون مداحًا كي يحافظ على كرامة شعره.

المدح بالطهر والعفاف:

أذكر أولاً أنني أعتبر الفخر من المدح لأنه يعبر عن المعايير التي يراها الشاعر حسنًا في نفسه أو قومه، فهو يدخل في موضوع المدح الذي حدّدته في بداية هذا البحث .

والحديث عن الطهر والعفاف قد نجده في الغزل العذري، لكن قلما نجده في المدح، وأبو فراس بارز في هذا المجال في أسلوب رائع يجسد دور النفس اللوامة في ضبط تصرفات الإنسان والتحكم في نزواته وشهواته، يقول:

فيا نفس ما لاقيت من لا عج الهوى ... ويا قلب ما جرت عليك النواظر

كأن الحجا والصون والعقل والتقى ... لدي لربات الخدور ضرائر

وهن - وإن جانبت ما يشتهينه ... حبائب عندي منذ كن أثائر

وكم ليلة خضت الأسنة نحوها ... وما هدأت عين ولا نام سامر

فلما خلونا يعلم الله وحده ... لقد كرمت نجوى وعفت سرائر

إلى أن يقول:

ولي فيك، من فرط الصبابة، آمر ... ودونك، من حسن الصيانة، زاجر

عفافك غي، إنّما عفة الفتى ... إذا عف عن لذاته وهو قادر

الأبيات تصور مشهدًا من مشاهد الصراع بين الطهر والهوى تحاكي قصة يوسف مع زليخا، وتنتهي بانتصار الإرادة على الشهوة، وهو من نوادر التصوير الفني في الأدب العربي

والشاعر يؤرقه شوقه إلى المحبوب، ويلتهب صدره بحب الحبيب، لكنه حب شريف عفيف السريرة، يقول:

كيف السبيل إلى طيف يزاوره ... والنوم في جملة الأحباب هاجره؟

الحــب آمــره والصــون زاجــره والصــبر أول مــا تــأتي أواخــره
أنــا الـذي إن صبـا أو شـفه غـزل فللعفـــــاف وللتقـــــوى مـــــآزره
وأشـرف الناس أهل الحب منزلة وأشـرف الحب مــا عفت سرائره

والبيـت الأخـير يبلـغ الـذروة في فهـم معنـى الحـب، ومكانـة المحبين ومعنى الحب الحقيقي يمدح نفسه بأنـه متخلق بهذا الحب العفيف الذي تتجلى فيه عظمةُ الإنسان وسموّه.

هجاء الأوضاع الاجتماعية

شـاعرنا حسـاس يرى بـواطن الأمـور ولا ينخـدع بالظـاهر، ويـرى الناس على حقيقتهم والأوضاع الاجتماعية علـى حقيقتهـا، فيسـوءه مـا يـرى مـن مظـاهر النفـاق والـدجل في المجتمـع، وهـي مظـاهر موجودة دائمًا بدرجـة وأخـرى في المجتمعـات البشـرية خاصـة حينمـا تختـل المـوازين الاجتمـاعيـة بسـبب الأوضـاع الاقتصـادية والسياسـية المهيمنة.

ويظهـر أن عصـر أبـي فـراس كـان يضـج بهـذا الاخـتلال نتيجـة الاحتكـاكـات القبليـة المسـتمرة والاشـتباكـات الحـربيـة المتواصلـة وضعف الخلافة المركـزية، والحـكومـات المتعـاصـرة . غيـر أن هـذا الوضـع لم يـؤد إلى انفعـال شـاعرنا وسـخطه بقـدر مـا أدى إلى أن يتخذ موقف الحـكيم الناقد لهذه الأوضاع، يقول:

وقور وأحداث الزمان تنوشني وللمـوت حـولي جيئـة وذهـاب
وألحـظ أحـوال الزمـان بمقلـة بها الصدق صدق والكذاب كذاب
بمـن يثـق الإنسـان فيمـا ينوبـه ومن أين للحـر الكـريم صحاب

وقد صار هذا الناس إلاّ أقلهم ... ذئابًا على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قومي فظنوا غباوتي ... بمفرق أغبانا حصئ وتراب
ولو عرفوني حق معرفتي بهم ... إذا علموا أني شهدت وغابوا
وما كلّ فعال يجازى بفعله ... ولا كلّ قوال لدي يجاب
ورب كلام مر فوق مسامعي ... كما طن في لوح الهجير ذباب

ويتألم شاعرنا أن يرى الأوضاع الاجتماعية في بلاد أعدائه أفضل مما هي عليه في بلاده، ففي العامين اللذين قضاهما في بلاد الروم لم ير الحزن على الوجوه، ولا التكلف في السلوك، ويرى أن ما يخشاه من قومه أدهى مما يخشاه من أعدائه، وهذا أروع تصوير في النقد الذاتي، يقول:

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى ... من الناس محزونًا ولا متصنعا
إذا خفت من أخوالي الروم خطة ... تخوفت من أعمامي العرب أربعا
وإن أوجعتني من أعادي شيمة ... لقيت من الأحباب أدهى وأوجعا

وهذا الهجاء للأوضاع الاجتماعية أو النقد الاجتماعي يعبر عن نزعة الشاعر الإصلاحية وفهمه لواقعه السيء، وجرأته على نقد هذه الأوضاع.

ومن هذا النقد ما يوجهه إلى الخلافة العباسية لتعاملها السيء مع أبناء علي الذين يمثلون في رأي الشاعر رمز الدين والتقى في المجتمع يقول:

الدين مخترم، والحق مهتضم ... وفيء آل رسول الله مقتسم
والناس عندك لا ناس فيحفظهم ... سوم الرعاة ولا شاء ولا نعم

ثم يقول:

يــا للرجــال أمــا لله منتصــف من الطغـاة ؟ أمـا للـدين منـتقم؟
بنــو علــي رعايــا في ديــارهم والأمـر تملكـه النسـوان والخـدم
محلـؤون فأصـفى شـربهم وشـل عنـد الـورود وأوفـى ودهـم لمـم
فـالأرض إلاّ علـى ملاكهـا سـعة والمــال إلاّ علــى أربابــه ديــم
ومـا السـعيد بهـا إلاّ الـذي ظلمـوا ومـا الغـني بهـا إلاّ الـذي حرمـوا
للمتقيـن مـن الـدنيا عـواقبهــا وإن تعـجل منهـا الظـالم الأثــم

والأبيـات طافحـة بالإحسـاس بـالظلم الـذي نـزل بحملـة الرسـالة الإسـلاميّة مـن آل علـي، بـل بالنـاس أجمـع حـين أقصـيت الفئـة الصالحة عن مواقعها الاجتماعية.

مدح المرأة

الشـعر العربـي تغـزل بـالمرأة ورثاهـا وقلمـا خصـص مـدحًا لهـا، لأنهـا ليسـت مصـدرًا للصـلات، أمـا أبـو فـراس فقـد اتجـه إلى مـدح بعـض النسـاء كمـا يمـدح الرجـل ففـي قصـيدة يمـدح فيهـا امـرأة شيعها في يوم ثلج يبدأ بمقدمة غزلية تقليدية ثم ينتقـل إلى الفخـر، وبعده يقول:

ويـوم كـأن الأرض شـابت لهولـه قطعت بخيل حشو فرسانها صبر
تسـير علـى مثـل المـلاء منشـرًا وآثارهــا طــرز لأطرافهــا حمــر
أشـيعه والـدمع مـن شـدة الأسـى علـى خـده نظـم علـى نحـره نثـر
وعدت وقلبـي في سجاف غبيطه ولـي لفتات نـحو هـودجه كثـر

وقـد يخيـل لقـارئ هـذه الأبيـات أن الشـاعر يتغـزل ولكنـه في الواقـع يمـدح، لأن المعنيـة بهـذه الأبيـات ليسـت حبيبـة بـل امـرأة مـن

أكابر قومه، يقول فيها بعد ذلك:

وفيمن حوى ذاك الحجيج خريدة

لهادون عطف الستر من صونها ستر

وفي الكم كف لا يراها عديلها

وفـي الخدر وجه ليس يعرفه الخدر

وهو من روائع المدح للمرأة في سترها وصونها ثم يرفع شأن هذه المرأة إلى الذروة حين يقول:

فهـل عرفـات عارفـات بزورهـا وهل شعرت تلك المشاعر والحجر

أما أخضر من بطنان مكة ما ذوى؟ أما عشب الوادي أما أنبت الصخر

سقى الله قومًا حل قـومك فيـهم سحائـب لاقُـلٌّ جداها ولا نـزر

ويمدح امرأة يبدو أنها زوجه بأسلوب متميز أيضًا، يقول:

وأديبـة اخترتهـا عربيـة تعزى إلى الجد الكريم وتنتمي

محجوبـة لم تبتـذل، أمـارة لم تـأتمر، مخدومـة لم تخـدم

لـو لم يكـن لـي فيـك ألا أنـني بك قد غنيت عن ارتكاب المحرم

ولقـد نـزلت فـلا تظني غيـره منـي بمنزلـة الـمحب المكـرم

الرسالية في المدح والهجاء

المقصود بالرسالية ما اتجه إلى مدح أو هجاء منطلق من إيمان برسالة سامية، وهو شائع لدى شعراء الشيعه بشكل خاص، ويتميز أبو فراس بالتركيز على هذا الجانب حتّى أنّه خصص قطعة من شعره ليذكر كلّ أئمة أهل البيت الاثنى عشر، وكأنه يريد أن يعلن عقيدته الاثني عشرية بكل وضوح وقل أن نرى ذلك

عند غيره من شعراء الشيعة يقول:

لست أرجو النجاة، من كلّ ما أخشاه، إلاّ بأحمد وعلي
وببنت الرسول فاطمة الطهر وسبطيه والإمام علي
والتقي النقي، باقر علم الله فينا محمّد بن علي
وابنه جعفر وموسى ومولانا علي، أكرم به من علي !
وأبي جعفر سمي رسول الله ثم ابنه الزكي علي
وابنه العسكري والقائم المظهر، حقي محمّد بن علي
بهم أرتجي بلوغ الأماني يوم عرضي على الإله العلي

وله في هذا المجال قصيدة «الدين مختزم» وسنأتي على ذكر أبياتها في الحديث عن أسلوب المقارنة عند أبي فراس، وفيها أيضًا يهجو العباسيين مادحًا العلويين من هذا المنطلق الرسالي حيث يقول:

خلوا الفخار لعلامين إن سئلوا يوم السؤال، وعمالين إن علموا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ولا يضيعون حكم الله إن حكموا
ما في ديارهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للسوء معتصم
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ولا يرى لهم قرد له حشم
الركن والبيت والأستار منزلهم وزمزم والصفا والحجر والحرم
صلى الإله عليهم أينما ذكروا لأنهم للورى كهف ومعتصم

أسلوب المقارنة في المدح والهجاء:

يشاهد في شعر أبي فراس جمعًا بين المدح والهجاء بصورة مقارنة بين الممدوح والمهجو.

نقف على سبيل المثال عند قصيدته المذكورة في مدح آل البيت وفيها يقارن بين العباسيين والعلويين . يقارن بينهما في الشرف والمكانة:

لا يطغين بني العباس ملكهم بنو علي مواليهم وإن زعموا

وفي شرف النسب:

أتفخرون عليهم لا أبا لكم حتّى كأن رسول الله جدكم

وفي المجد:

ولا لكم مثلهم في المجد متصل ولا لجدكم مسعاة جدهم

وفي العرق والرحم:

ولا لعرقكم من عرقهم شبه ولا نفيلتكم من أمهم أمم

وفي الصفح عن الأسرى:

هلاّ صفحتم عن الأسرى بلا سبب للصافحين ببدر عن أسيركم ؟

وفي الفارق بين هارون الرشيد وموسى بن جعفر، وبين المأمون وعلي بن موسى الرضا:

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا

مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم

وفي ما يتصاعد من بيوتهما من أصوات:

تبدو التلاوة من أبياتهم أبدًا وفي بيوتكم الأوتار والنغم

وفي النساء والرجال:

منكم عليّة أم منهم ؟ وكان لهم شيخُ المغنين إبراهيم أم لكُمُ؟

وهذا الأسلوب في المقارنة طريقة بديعة في المدح والهجاء قل أن نجد له نظيرًا في الشعر العربي .

أسلوب الحوار في التمدح:

هذا الأسلوب نجده بوضوح في قصيدة «أراك عصي الدمع» وفي هذه القصيدة يبدو على الظاهر أنّه يتغزل، ولكن لو أمعنا النظر فيها لوجدنا أنّه يتحدث عن نفسه بأنه: صابر ـ حافظ للعهد ـ حبه لا يتزعزع ـ معروف غير مغمور ـ قائد كتائب القتال ـ مقتحم لكل الأهوال ـ محارب لا يهدأ ـ صاحب رجولة امام طلب النساء ـ كريم ـ يتخير أصعب الطرق ـ لا يرضخ للذل ـ لا يستغني عنه أهله ـ لا يتخير إلاّ الصدر ـ تهون عليه نفسه في طلب المعالي.

إذن هو يمتدح نفسه في هذه القصيدة أي يفخر بها وهو في أسره، والمحاور في القصيدة لا يبدو أنّه امرأة يتغزل بها، بل مَثَل أعلى يتعشقه، والدليل على ذلك أن هذه المحاوِرَة تعرف كلّ فتى مثل أبي فراس ولا تنكره، وأن قتلاها كثيرون، فهو إذن يتحدث مع محاوِرة تحاول أن تتجاهله وهو ينكر عليها هذا التجاهل، وليس ببعيد أن تكون حريته أو سيف الدولة كما ذهب إلى ذلك بعضهم . لأنه كان يتوق إليهما وهو في أسره، بينما كان سيف الدولة ـ في ظن أبي فراس ـ يتجاهله، فهو يرد على هذا التجاهل بذكر كلّ الصفات الكريمة التي يتحلى بها.

والجميل في أسلوب القصيدة هو ذكر هذه الصفات الحميدة على شكل حوار:

ـ أراك عصي الدمع شيمتك الصبر	أما للهوى نهي عليك ولا أمر ؟
ـ بلى أنا مشتاق وعندي لوعة	ولكن مثلي لا يذاع له سرّ..
ـ تسائلني من أنت ؟ وهي عليمة	وهل بفتى مثلي على حالها نُكر؟!

ـ فقلت: كما شاءت وشاء لها الهوى فتيلك ! قالت: أيهم فهو كُثُر!

ـ فقلت لها: لو شئت لم تتعنتي ولم تسألي عني وعندك بي خُبرا!

ـ فقالت: لقد أزرى بك الدهر بعدنا فقلت: معاذ الله بل أنت لا الدهر

وفي بعض أبياته يحاور أصحابه:

ـ قال أصيحابي: الفرار أو الروى ـ فقلت: هما أمران أحلاهما مرّ

ـ يقولون لي: بعت السلامة بالردى ـ فقلت: أما والله ما نالني خُسر

إن أبا فراس من نوادر الشعراء العرب الذين عزفوا على قيثارة قلوبهم، فما كان يصطنع الشعر كسبًا للمال، ولا كان يهتم بكسب ود هذا وذاك، ولكنه كان في شعره يعبر أصدق تعبير عن تجربته الشعورية، ثم إن الرجل توفرت له بيئة رفعته من الانشداد بهمومه الذاتية وعواطفه الفردية، فعاش لهمّ كبير هو الدفاع عن دولة ارتبط بها نسبًا وقيادة وعقيدة، فكان يهمه أن يرى هذه الدولة منسجمة موحدة قوية في داخلها، صامدة منتصرة أمام أعدائها، من هنا اتجه مدحه إلى كلّ ما يحقق آماله وطموحاته، واتجه هجاؤه إلى كلّ ظاهرة من شأنها إضعاف شوكة هذه الدولة ومصادرة عزتها وكرامتها.

ونحن اليوم ـ في اعتقادي ـ بأمس الحاجة إلى تعميم القيم التي تغنّى بها أبو فراس من رجولة وكرامة ووحدة وانسجام، ومن رفض لتلك التحديات التي تواجه شخصية الأمة .

من جهود التقريب والوحدة

• السيد شرف الدين أول عالم شيعي أمّ الحجاج في المسجد الحرام • ثمة لقاءات هامة: شرف الدين ـ البشري، والزنجاني ـ المراغي، الكاشاني ـ البنّا • نواب صفوي زار القاهرة • محسن الأمين حارب الفرنسيين كما حارب الطائفية • كاشف الغطاء من المتعاونين مع دار التقريب في القاهرة ومع مجلتها • كاشف الغطاء شارك في المؤتمر الإسلامي بالقدس وأمّ المصلين • مؤتمرات دمشق للتقريب تواصلت عبر أكثر من نصف قرن • الإيسيسكو نشط خلال العقدين الأخيرين في إقامة مؤتمرات التقريب.

على الصعيد الفردي:

من الطبيعي أن ينهض المخلصون من أبناء الأمة إلى بذل ما وسعهم في سبيل وحدة الأمة الإسلامية؛ إذ كل نصوص القرآن والسنة ومنهج السيرة النبوية يدعو إلى ذلك، وكل الظروف القائمة المخيمة على المسلمين تفرض ذلك، وكل تطلع إلى عزّة المسلمين وكرامتهم يستوجب ذلك.

لقد تحرك علماء المسلمين في فترة متقدمة من القرن الماضي لجمع كلمة المسلمين السنة والشيعة، منهم السيد عبد الحسين شرف الدين، فقد بذل جهدًا علميًا وعمليًا جبارًا؛ لإزالة سوء

التفاهم بين علماء السنة والشيعة، وحج سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١ م عن طريق البحر في عهد الشريف حسين، واحتفى به الشريف، واجتمعا أكثر من مرة وغسلا الكعبة المشرفة معًا، ثم أمّ الناس في المسجد الحرام، وهو أوّل عالم شيعي أمّ جموع الحجاج في هذا المسجد الكريم.

وحين أحرق الاحتلال الفرنسي بيته ومكتبته الضخمة غادر لبنان إلى دمشق ثم إلى فلسطين، ومنها إلى مصر حيث اجتمع بالعلماء وعلى رأسهم شيخ الأزهر يومئذ سليم البشري، وكان من نتائج اجتماعاته المتوالية بالشيخ سليم كتاب *المراجعات*.

وغير لقاء شرف الدين – البشري، ثمة لقاء بين الزنجاني – المراغي ، فقد زار عالم الشيعة في النجف الشيخ عبد الكريم الزنجاني مصر سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م. وكان شيخ الأزهر يومئذ الشيخ محمد مصطفى المراغي، وأقيم للشيخ الزائر حفل كبير في الأزهر حضرته الشخصيات السياسية والعلمية المصرية، ومما قال:

«إني أشعر بسعادة عظيمة وغبطة لوجودي بين هذا الحفل العلمي الكريم الذي تأيد فيه نجاح جهودنا الجبارة في سبيل توحيد شعور المسلمين وتقوية الروابط الدينية بينهم، على اختلاف أوطانهم، وإذكاء روح الأخوة الإسلامية في طوائفهم المختلفة، وأرى جليًا أن وجوه النظر بين الطائفتين الإسلاميتين الكبيرتين، الشيعة والسنة، قد تقاربت بمساعينا ومساعي فضيلة الأستاذ

الأكبر الإمام المراغي، وتجلت حقيقة الأخوة الإسلامية في هذا الاحتفال العظيم التارخي الذي أقامه الأزهر الشريف تكريمًا للنجف الأشرف».

وعن هذا التكريم علقت صحيفة «البلاغ» المصرية: «ومما يذكر عن هذا التكريم العلمي ما لاحظه بعض المفكرين من أن هذه هي المرة الأولى بعد أكثر من ألف سنة يجتمع فيها كبار العلماء السنيين في الأزهر برئاسة أكبر زعيم ديني وهو شيخ الجامع الأزهر لتكريم كبير علماء الشيعة الإمامية وهو الإمام الشيخ عبد الكريم الزنجاني».

ويظهر أن مراسلات كانت جارية بين الشيخ الزنجاني والشيخ المراغي قبل هذه الزيارة، ففي الوثائق أن الشيخين اهتزا لأنباء الحوادث التي جرت بين السنة والشيعة في الأقاليم الشمالية للهند سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م، ودار الحديث بينهما حول مشروع إنشاء «مجلس إسلامي أعلى» يضم الشيعة والسنة للتغلب على المشاكل القائمة، ولم يتحقق المشروع.

وثمة لقاء تقريبي آخر كان في إطار مبادرات فردية هو لقاء الكاشاني ـ البنا.

في عام ١٩٤٨م خلال فترة الحج التقى العالم الإيراني السيد أبو القاسم الكاشاني (١٣٠٠ – ١٣٨١هـ / ١٨٨٣ – ١٩٦٠م)، بالشيخ حسن البنا (١٣٢٤ – ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ – ١٩٤٩م)، وحدث بينهما تفاهم وتقارب في وجهات النظر حول التقارب والوحدة بين

المسلمين على أمل أن يكون هذا اللقاء بداية مسار على طريق الوحدة الإسلامية، وقد سجل هذا الحدث لأهميته في تراجم سيرة الرجلين، وكان ملفتًا للكثيرين، فقد نقل الأستاذ عبد المتعال الجبري عن روبير جاكسون في حديثه عن الشيخ حسن البنا قوله: «ولو طال عمر هذا الرجل لكان يمكن أن يتحقق الكثير لهذه البلاد، خاصة لو اتفق حسن البنا وآية الله الكاشاني الزعيم الإيراني على أن يزيلا الخلاف بين الشيعة والسنة. وقد التقى الرجلان في الحجاز عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، ويبدو أنهما تفاهما ووصلا إلى نقطة رئيسة لولا أن عوجل حسن البناء بالاغتيال». ويعلق الأستاذ الجبري قائلا: »لقد صدق روبير وشمّ بحاسة السياسة جهد الإمام البنا في التقريب بين المذاهب الإسلامية فما باله لو أدرك عن قرب دوره الضخم في هذا المجال.. ما لا يتسع لذكره المقام».

وفي عام ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م زار القاهرة السيد نواب صفوي زعيم حركة فدائيان إسلام، ولعل هذه الزيارة مرتبطة باللقاء الذي جرى بين الكاشاني والبنا، لما بين نواب صفوي والكاشاني من علاقة وطيدة.

واستقبلت زيارة صفوي للقاهرة باهتمام كبير وكانت بداية علاقات واتصالات وثيقة، يشرح هذه العلاقات الأستاذ حميد عنايت بقوله: «كانت حركة فدائيان إسلام هي الجماعة الوحيدة التي كان لها علاقات تعليمية عقائدية – وقيل تنظيمية

أيضا – مع مثيلاتها عند أهل السنة في العالم العربي، وخلال السنوات العشر الأخيرة ترجمت كثير من مؤلفات سيد قطب ومحمد الغزالي، ومصطفى السباعي إلى الفارسية على أيدي الفدائيين أو حماتهم ونشرت في إيران. فإن تجلي مثل هذه الروح التي تتجاوز أي نوع من التمذهب من إحدى أكثر الجماعات الشيعية المعاصرة نضالاً أمر جدير بالإعجاب».

وينقل الأستاذ محمد علي الضناوي في كتابه كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث / ص ١٥٠ نقلاً عن برنادر لويس قوله: »وبالرغم من مذهبهم الشيعي فإنهم يحملون فكرة عن الوحدة الإسلامية تماثل إلى حد كبير فكرة الإخوان المصريين، ولقد كانت بينهم اتصالات وعندما يلخص الأستاذ الضناوي بعض مبادئ فدائيان إسلام يجد فيها: **أولا**: الإسلام نظام شامل للحياة. **ثانيًا**: لاطائفية بين المسلمين أي بين السنة والشيعة، ثم ينقل عن نواب قوله: «لنعمل متحدين للإسلام ولننس كل ماعدا جهادنا في سبيل عز الإسلام. ألم يأن للمسلمين أن يفهموا ويدعوا الانقسام إلى شيعة وسنة».

ومن الذين نهضوا بمسؤولية مواجهة الطائفية ضمن مبادرة فردية السيد محسن الأمين (١٢٨٤ – ١٨٦٧/١٣٧١ – ١٩٥١م) فهذا الرجل مثل السيد عبد الحسين شرف الدين جاهد على جبهتين: جبهة مقارعة الاستعمار الفرنسي، وجبهة رص الصف الإسلامي، وكلا الجهادين يلتقيان في هم واحد هو عزة المسلمين

وكرامتهم. نشط في حقل الوحدة الإسلامية منذ قدومه من لبنان واستقراره في دمشق سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م، ونجح في ذلك بشهادة معاصريه.

يقول لطفي الحفار رئيس الوزراء السوري الأسبق:

«إن ما كان يتمتع به الإمام العلامة السيد محسن من الزعامة والقوة والحب العميق من جميع من عرفه واجتمع إليه من إخوانه ورجاله وأبناء عشيرته وغيرهم، كانت هذه الزعامة والحب قوة لنا لمتابعة الجهاد والنضال دون تردد أو ضعف، وكانت مجالسه كلها التي نغشاها من حين إلى آخر مجالا للدعوة الصالحة في وجوب التضامن والائتلاف ونبذ السخائم والخلافات والترفع عن الدنيا والإسفاف».

وقال عنه الشيخ هاشم الخطيب من علماء السنة من دمشق: «لقد نهض بأبناء طائفته الجعفرية في سوريا ولبنان وجبل عامل نهضة مباركة، وخطا بهم خطوة طيبة حببت إليهم جميع إخوانهم من المسلمين والعرب، كما حببتهم أيضًا إلى الجميع فكانوا يدًا واحدة إخوانا متحابين على سرر متقابلين، تجمعهم وحدة الإسلام وتنظم أهدافهم وغاياتهم المصلحة العامة».

ونقل عنه الدكتور مصطفى السباعي «أن شخصا جاء إليه لينتقل من المذهب السني إلى المذهب الشيعي، فعرفه بأنه لا فرق بين السنة والشيعة في العنوان الإسلامي. وعندما أصر هذا الرجل قال له السيد الأمين قل: أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمدًا

رسول الله، فقالها الرجل، قال له: لقد أصبحت شيعيًا».

ومن أصحاب المبادرات الفردية لتوحيد الصف الإسلامي أيضًا الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٥ – ١٣٧٣هـ / ١٨٧٨ – ١٩٥٣م)، وكان من المتعاونين مع دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، ومن المشاركين في مجلتها رسالة الإسلام يقول هو عن نفسه:

«مضى عليّ أكثر من خمسين سنة، وأنا أهيب بإخواني المسلمين أدعوهم إلى الاتفاق، والوحدة وجمع الكلمة، ونبذ مايثير الحفائظ، وينبش الدفائن والضغائن التي أضرت بالإسلام وفرقت كلمة المسلمين فأصبح الإسلام غريبًا يستنجد بهم، تكالب عليه أعداؤه وجاحدوه وخذله أهله وحاملوه.

ومن أراد شاهد صدق على ذلك فليراجع الجزء الأول من الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية الذي طبع منذ ٤٤ سنة، ولينظر أول صفحة منه إلى صفحة ٢٧ تحت عنوان: البواعث والدواعي لهذه الدعوة، ولم تزل نشراتي ومؤلفاتي في أكثر من نصف قرن سلسلة متوالية الحلقات متصلة غير منقطة كلها في النصح والإرشاد والدعوة إلى الاتحاد ودفع الفساد».

ذكرنا هذه المبادرات الفردية على سبيل المثال لا الحصر، وغيرهم كثيرون ممن بادر في القرن الماضي على الصعيد الفردي في الدعوة إلى وحدة المسلمين، كما أن الذين بادروا إلى هذا الهدف ضمن مشاريع ومؤسسات كثيرون أيضا، مثل الشيخ

محمد تقي القمي، والشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت.

ب – على صعيد المؤتمرات

المؤتمرات تتخطى المبادرات الفردية لتجمع أصحاب الفكر على صعيد موضوع واحد للخروج بنتائج يشمل تأثيرها مساحة واسعة من العالم الإسلامي.

أولا - مؤتمرات القدس:

انعقدت مؤتمرات في القدس جمعت علماء السنة والشيعة، وتداولوا شؤون المسلمين وتفرقهم، ففي عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م انعقد مؤتمر وضعه المستشرق «جب» في كتاب *الإسلام إلى أين* بقوله: «لم يحدث طوال تاريخ الإسلام أن فكر السنة والشيعة معا، وتبادلوا وجهات النظر في قضاياهم ومشاكلهم المشتركة، ومهما حمل هذا الأمر على ضعف الزخم المذهبي في الحياة السياسية، فهو يدل في الوقت نفسه على إدراك أكثر للعلاقات المشتركة بين المسلمين في العالم المعاصر».

وفي عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م انعقد مؤتمر إسلامي آخر في القدس لاتخاذ موقف من الأطماع اليهودية في فلسطين، وجمع علماء السنة والشيعة، وكان بين المشاركين الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء الذي ألقى كلمة وأم المصلين في المسجد الأقصى ، وبعد النكبة انعقد في القدس أيضا عام ١٣٧٣هـ /

١٩٥٣، مؤتمر آخر كان له دور متميز في جمع الصف الإسلامي.

ثانيًا – مؤتمرات دمشق:

انعقد مؤتمر العلماء الأول في دمشق سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، وشارك فيه الشيخ عبد الكريم الزنجاني، وألقى فيه كلمة . وبعد أن ختم المؤتمر أعماله صدرت عنه جملة من المقررات، وبشأن التقريب بين المذاهب ورد في المقرر الثاني عشر: »بشأن تعاون أبناء المذاهب الإسلامية وتنظيم العمل الديني، إن مؤتمر العلماء الأول المنعقد بدمشق في ١١ – ١٣ رجب سنة ١٣٥٧هـ / ٦ – ٨ أيلول سنة ١٩٣٨م بناء على اقتراح فضيلة الأستاذ الكبير الإمام الشيخ عبد الكريم الزنجاني من كبار علماء الشيعة الإمامية في النجف الأشرف في شأن التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتعاون المسلمين مع اختلاف مذاهبهم الذين تجمعهم عقيدة التوحيد ومقاصد الإسلام لمكافحة الإلحاد والفوضى الأخلاقية ولتنظيم العمل الاجتماعي والوحدة الروحية، وبعد المذاكرة في هذا الاقتراح القيم الجليل، وبعد الاطلاع على مساعي فضيلة الإمام الزنجاني صاحب الاقتراح، في سبيل اقتراحه يقرر:

١ـ شكره على غيرته وسعيه في ضم شمل المسلمين الذين تجمعهم كلمة التوحيد لمكافحة الإلحاد ورفع كيان المسلمين إلى المستوى الأعلى في حياتهم الاجتماعية.

٢ - تأييده العمل في سبيل ذلك المقصد الأسمى.

٣ - تكليف اللجنة التنفيذية بالمباشرة بالاتصال مع علماء الأقطار الإسلامية لتحقيق مؤتمر عام في المكان والزمان اللذين يتفق عليهما لتحقيق تلك الأمنية السامية».

والمؤتمر الآخر عقد سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م في دمشق تحت عنوان: استراتيجية التقريب بين المذاهب «برعاية مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية» شارك فيه عدد من أئمة المذاهب والعلماء وممثلون عن الأزهر الشريف ورابطة العالم الإسلامي، ودار الحديث الحسنية بالمغرب، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن.

ودعا البيان الختامي للمؤتمر المنظمات والمؤسسات والجمعيات الإسلامية لمتابعة العمل من أجل التقريب بين المذاهب الإسلامية الفقهية المعتمدة. وتعميم ثقافة التقريب بين المذاهب وإعداد الأدبيات الدينية والفكرية التي تسهم في بلورة هذه الثقافة، وتقوم على قاعدة احترام الاجتهاد.

وحضر المؤتمر من علماء سوريا الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وكما حضره الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الشيخ الدكتور عبد الله بن صالح العبيد، ومن الأزهر الشريف حضره وكيل الأزهر الشيخ فوزي فاضل الزفزاف، إضافة إلى شخصيات علمية من إيران وعمان ولبنان واليمن والمغرب وأفغانستان والكويت والإمارات.

وثمة مؤتمر تقريبي عقد في سوريا، ولكن في حلب أذكره إتمامًا للفائدة، وحمل عنوان: «المشروع المستقبلي لوحدة الأمة الإسلامية» بمعهد التراث العلمي العربي بتاريخ ٢٥ – ٢٦ شوال ١٤٢٠ / ١ – ٢٠٠٠/٣/٢م. وشارك فيه جمع من علماء إيران وسوريا واهتم بالإعداد له السفارة الإيرانية في دمشق بالتعاون مع المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية بطهران.

ثالثًا – مؤتمرات الوحدة الإسلامية بطهران:

بدأ من الثمانينيات في طهران عقد مؤتمر سنوي للوحدة الإسلامية، يحمل كل عام عنوانًا معينًا يرتبط بقضايا الوحدة والتقريب، وفي القرن الماضي عقد ثلاثة عشر مؤتمرًا ولايزال متواصلاً انعقاده خلال الأيام من ١٢ – ١٧ ربيع الأول من كل عام، وهي الأيام التي أطلق عليها اسم أسبوع الوحدة الإسلامية، وهي تمتد من الرواية الأشهر ليوم مولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند أهل السنة، حتى الرواية الأشهر ليوم المولد عند الشيعة.

ويدعى سنويًا لهذا المؤتمر علماء من مختلف أرجاء العالم؛ ليدرسوا محاور موضوع يعينه المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية؛ وليخرجوا منه بنتائج محددة في الموضوع، ويتخذ المؤتمر عادة موقفًا من القضايا المصيرية والحاسمة في العالم الإسلامي.

وإضافة إلى مؤتمرات الوحدة الإسلامية، ثمة مؤتمرات أخرى يقيمها المجمع لتكريم روّاد التقريب، مثل مؤتمر السيد جمال الدين المعروف بالأفغاني، ومؤتمر البروجردي – شلتوت.

جدير بالذكر أن المؤتمر الأخير كان مصريًا – إيرانيًا لدراسة مشروع دار التقريب بين المذاهب الإسلامية من خلال شخصيتين كان لهما الدور الأكبر في هذا الدار.

رابعًا – ندوات الايسيسكو للتقريب:

أول ندوة أقامتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الايسيسكو) التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي تحت عنوان «التقريب بين المذاهب الإسلامية» كانت سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م في الرباط. وحضرها علماء من إيران والمغرب واليمن وعمان وسوريا يمثلون المذاهب الإسلامية. وأصدرت في نهاية اجتماعاتها بيانا ختاميًا وتوصيات ونداء إلى الأمة الإسلامية.

وأكد البيان الختامي على أن عملية التقريب بين الأفكار والاتجاهات والمذاهب المختلفة ضرورة يقتضيها العمل الإسلامي المشترك؛ لتقوية الصف الإسلامي، وتدعيم الوحدة الإسلامية في أجلى مظاهرها، وأن خطة التقريب يجب أن تقوم على أساس الثبت من صحة نسبة الآراء والمواقف والتركيز على الإيجابيات، واحترام اجتهادات أئمة المذاهب.

ودعم البيان الختامي الاقتراح الذي تقدم به المجمع العالمي

للتقريب بين المذاهب الإسلامية بطهران، ممثلا بكاتب هذه السطور، بإعادة طبع المجموعة الكاملة لمجلة رسالة الإسلام التي صدرت عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة، وتم بعد ذلك إعادة طباعة هذه المجلة كاملة في المجمع.

وندوة الايسيسكو الثانية للتقريب عقدت أيضًا في الرباط سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م تناولت موضوعات أسباب الخلاف المذهبي، وآداب التعامل في الخلاف المذهبي، ووسائل تقريب وجهات النظر، واقترحت بعض الأمور العملية التي يجري العمل على بعضها، وينتظر بعضها التنفيذ، من ذلك:

توحيد المصطلحات الفقهية والمذهبية، وتأليف كتاب مبسط بتعريف المذاهب الإسلامية مدون بلغة قائمة على أساس الأدب والحب والابتعاد عن العصبية، وإعادة كتابة التاريخ بأسلوب موضوعي يخدم التقارب، وتضمين مناهج التعليم دروسا خاصة تدعم الأخوة الإسلامية.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَ هُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَ دِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَ جُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَ شَمِلَهُ الْبَلاءُ وَ دُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَ الْقَمَاءَةِ وَ ضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ وَ أُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَ سِيمَ الْخَسْفَ وَ مُنِعَ النَّصَفَ .

الإمام أمير المؤمنين(ع)

المقاومة في الأدب العرفاني

جلال الدين الرومي نموذجًا

جلال الدين، محمد البلخي (٦٠٤ -٦٧٢هـ) وُلد في مدينة بلخ من مدن خراسان الكبرى، وتقع اليوم في أفغانستان.

تنقّل مع أسرته حتى استقر في «قونية» من بلاد الأناضول.

القرن الذي ولد وعاش فيه جلال الدين المولوي يمثل الحالة الفظيعة التي وصلت إليها مشاعر الأمة الإسلامية من انتكاسة، والروح الإسلامية من هبوط، وهذا هو الذي وفّر أرضية اجتياح العالم الإسلامي على يد المغول وسقوط بغداد.

الدراسات الدينيّة صارت جافّة لا تخاطب الروح، والمدارس الدينية تحوّلت إلى دكاكين. واستفحلت الذاتيات والأنانيات، وظهر التمزّق الاجتماعي على أثر ذلك. ومن الطبيعي أن يتجه نظر كل مصلح في مثل هذه الأوضاع إلى معالجة الروح والمشاعر. ونهض جلال الدين الرومي بمشروعه الكبير في الإحياء الديني منطلقًا من القرآن والسنّة، ومتعمقًا في النفس البشرية ليضع إصبعه على نقاط ضعفها وقوتها، وليدعو إلى ارتفاع الإنسان إلى مستوى إنسانيته، وليجعل خطابه خطاب توحيد ووحدة: (مثنوي، دفتر ٦، بيت ١٥٢)

مثنويّ ما دكان وحدت است

غير واحد هرچه بيني آن بت است

أي: مثنويّنا حانوت الوحدة

وكلّما تراه غير الواحد فهو الوثن

وظلّ حتى آخر حياته يتحرّك ويحرّك، لا يهدأ حتى في أيام مرضه الأخير، إذ لم ير على وجهه إلاّ الاستبشار مع أن الحمى المحرقة كانت تنهش بدنه. توفي سنة ٦٧٢هـ ، بعد أن أقام الدنيا، ولم يقعدها حتى اليوم، إذ نرى كبار علماء الشرق والغرب يعكفون على دراسة آثاره واستخراج الدرر من كنوزه.

محور الخطاب المقاوم لجلال الدين الرومي يتمثل في دعوة الإنسان إلى الحركة نحو المطلق لأنه قد انفصل عن الله ويحمل في نفسه أشواقًا إلى مصدره الأول، فهو يستثير هذه الأشواق ويسمّيها بالعشق، ويدعو على من لا يحمل هذه الأشواق بالموت والفناء. وهذا ماجاء في «قصة الناي» التي يبتدئ مولانا كتابه «المثنوي» بها يقول: (مثنوي، دفتر ١، بيت ١ -٤)

١ـ بشنو از نی چون حکایت می‌کند

از جداییها شکایت می کنـــد

٢- کز نیستان تا مرا ببریده‌اند

در نفیرم مرد وزن نالیده‌انـد..

٣- هر کسي کو دور ماند از اصل خویش

باز جوید روزگار وصل خویش

١ـ اصغ إلى الناي إذ يشكو ويحكي عن آلام الفراق.

٢ - مـاإن انفصلتُ عن مزرعة القصب حتى غدا الرجال

والنساء يئنون مع أنيني.

٣ - كل من أصبح بعيدًا عن أصله، يعود ليبحث عن يوم وصاله.

والذي يبعث الناي على هذه الأشواق هو النار الملتهبة في داخله وليس الهواء.. وهذه النار هي نار العشق.. في إشارة رمزية إلى معنى العشق . وفي إشارة رمزيّة أيضًا إلى أنّ هذه الأشواق الإنسانية هي الطاقة التي تبعث بالبشرية إلى الحركة والكمال (مثنوي، دفتر ١/ابيات ١٠ -١٢).

١ـ آتشست اين بانک ناي ونيست باد

هركه اين آتش ندارد نيست باد

٢- آتش عشقست كاندر ني فتاد

جوشش عشقست كاندر مي‌فتاد

١ - إنها النار في صوت الناي وليس الهواء، والموت لمن لا يحمل هذه النار في صدره.

٢ - إنها نار العشق التي وقعت في الناي، إنها فورة العشق التي شبّت في الخمرة.

وفي مقال سابق أشرت إلى أن عملية الإحياء في فكر مولانا تقوم على أساس إحياء العشق في نفس الإنسان، والعشق هو الطاقة التي تحرّك الإنسان إلى المطلق.. وهذا المعنى للعشق من أهمّ ماتدور حوله مفاهيم العرفان الإسلامي، ومن أجمل مايحمله هذا العرفان من خطاب إنساني.

ومفهوم العشق في العرفان واضح وهو بعبارة بسيطة: التخلّص من أغلال «الطين»، والانطلاق في جوّ الكون الفسيح في حركة لانهاية لها نحو الجمال والكمال.

والدعوة إلى العشق تستوعب جزء هامًا من كتاب المثنوي ، يطرحها بأساليب مختلفة، ولأهميتها يخصص لها القطعة الثانية من الكتاب.

يدعو في هذا المثنوي ابنه، أو أي ولدٍ – في إشارة إلى أنه موجّه أولاً إلى الشباب – ويقول : حرّر نفسك من قيود المال والمتاع، فحاجة الإنسان من متاع الدنيا محدودة. وهذه الدعوة لا تعني طبعًا الانعزال عن ممارسة النشاط الاقتصادي في الحياة، بل هي دعوة إلى الابتعاد عن الحرص والطمع والذاتية والأنانية، وهو مما يستلزم النشاط الاقتصادي السليم في كل مجتمع كي يتجه الاقتصاد فيه إلى خدمة المصلحة العامة.

ولا سبيل إلى التحرّر من هذه القيود إلا أن تكون عاشقًا، فالعشق يطهّر الإنسان من العيوب، ويسمو به، ويجعل الجبل دكًّا ويخر موسى صعقًا. يقول: (م.ن/ الابيات ١٩ -٢٦)

١ـ بند بُگسل باش، آزاد اي پسر
چنـــد بـــاشي بنـــدِ سيـــم و بندِ زرّ

٢- گر بريزي بحر را در كوزه يـــي
چند گنجد؟ قسمتِ يک روزه‌يی

٣- كوزەي چشم حريصان پر نشـــد

تــا صدف قانع نشد پُــر دُر نشـــد

٤- هركه را جامه زعشقي چاک شـــد

او زحــرص وعيب كلّــي پاک شـــد

٥- شاد باش اي عشق خوش سوداي ما

اي طبيـــب جملـــه علّتهـــاي مــــا

٦- اي دواي نخوت وناموس مــــا

اي تــــــو افـــلاطون وجالينوس مــا

٧- جسم خاک از عشق بر افلاک شد

كوه در رقـص آمـد و چــــالاک شـد

٨- عشق جانِ طور آمد عاشقــــــا

طور مســـــــت وخرّ موسي صاعقـا

١ ـ أيها الغلام اكسر القيود وتحرر، إلى متى تبقى في أسر الذهب والفضة؟

٢ - لو صببنا ماء البحر في كوز، فما مقدار ما يستوعبه الكوز؟ إنه مقدار مايمكن استهلاكه في يوم واحدٍ.

٣ - عين الطامعين لا تمتلئ أبدًا، نعم، لو لم تقنعِ الصَدَفة لما امتلأت درًّا.

٤ - من دخل في تجربة العشق، فقد تطهّر تمامًا من الأطماع والعيوب.

٥ - كن قرير العين أيها العشق، يا منيتنا الجميلة، يا طبيب كل أمراضنا.

٦ - يا دواء أنانيتنا وذاتياتنا، يا أفلاطوننا وجالينوسنا!

٧ - الجسم الترابي بفضل العشق سما على الأفلاك ، بل إن الجبل اهتزّ بفضله راقصًا.

٨ - أيها العاشق، إن العشق قد منح الجبل روحًا وحياة، حتى أن الطور أصبح ثملاً وخرّ موسى صعقًا.

وفي الأبيات إشارات إلى أن العشق يحرّر الإنسان من أغلال الجسد ويسمو به، وأن السبيل الوحيد لتخلّص الإنسان من الذاتية والأنانيّة هو العشق، الحكمة اليونانية اتخذها المتكلمون لتربية الإنسان وتهذيبه، ولجأوا في ذلك إلى أفلاطون وجالينوس ، لكن أفلاطون العارفين وجالينوسهم هو العشق، فبه يسمو الإنسان وتتفتح أمامه أبواب الحكمة والمعرفة والكمال.

العرفان الحقيقي هو أن يعرف الإنسان نفسه وموقعه من الكون والحياة والخالق وأخيه الإنسان.

بهذه المعرفة يرتفع الإنسان عن الانشداد بتوافه الأمور، ويتجه نحو مثله الأعلى السامي في الحياة.

وبذلك يقاوم كل عوامل الضعف والهزيمة والاستسلام في نفسه وفي مجتمعه.